مجلة تسليم
Journal Homepage: https://tasleem.alameedcenter.iq
ISSN: 2413-9173 (Print) ISSN 2521-3954 (Online)

في التَّسْلِيم لِلْعِتْرَةِ الطَّاهِرَة

مَقَاْصِدُ الحِكْمَةِ فِي كَلَاْمِ الإِمَاْمِ الكَاْظِمِ عليه السلام وَمُطَاْبَقَتهَا لِلدَّلَاْلَةِ القُرْآنِيَّةِ

مُحَمَّد أحمد عليّ حجازيّ [1]
١ الجامعة الإسلاميَّة / كلِّيَّة الدراسات الإسلاميَّة / قسم العلوم القرآنيَّة، لبنان؛
Mohamad.hijazy@hotmail.com
دكتوراه في اللُّغة العربيَّة / أستاذ

تاريخ التسلّم	تاريخ القبول	تاريخ النشر
٢٠٢٣/٧/١	٢٠٢٣/٨/١٠	٢٠٢٣/٩/٣٠

المجلـد (١٥) العـدد (٢٧)
ربيع الأوَّل ١٤٤٥هـ-أيلول٢٠٢٣م
DOI: 10.55568/t.v15i27.55-89

CC BY NC

مُلَخَّصُ البحْث:

إذا كانت الحكمة ضالّة المؤمن، أينما وجدها أخذها، فكيف إذا بحثنا عنها واستفدناها من المناهل الإلهيَّة العذبة في حِكَم العترة الطاهرة المطابقة في دلالتها لآيات الكتاب المجيد، إذ يجد التائه، الباحث عن ضالّته ما يروي عطشه العلميّ في المجالات العلميّة كافَّة واللافت عند تتبع تراث أئمة أهل البيت عليهم السلام هو مطابقته لكثير ممَّا ورد في قواعد علم البلاغة من علم المعاني والبيان والبديع والمختصرات الوافية والإيجازات الكافية باستعمال التشبيه والاستعارة والكناية وغير ذلك، وهذا إن دلَّ على شيء فإنَّه يدلُّ على التطابق المنهجيّ بين الثقلين والقرآنين: الصامت والناطق.

لذلك، ولأهميَّة التعرُّف على قيمة هذه الحِكَم العلميَّة، وجدنا من الضروريّ التوقّف عند عِلْم الإمام الكاظم عليه السلام وأحاديثه، والتعرُّف على مقاصد حِكمه ومداليلها اللُّغويَّة ومطابقتها للمعاني القرآنيَّة، وهو أمر في غاية الأهميَّة حيث يُستدلّ به على حجيَّة قولهم ورفعة مكانتهم بكون كلامهم امتدادًا لكلام رسول الله صلى الله عليه وآله، وهو من رحيق النبوَّة ومعدن الوحي، وأريج القرآن، وبلاغته الإعجازيَّة.

ولأجل الاطِّلاع على عدد من جوانب هذا الموضوع على نحو مختصر وموجز، فقد تكلَّمت عن حياة الإمام عليه السلام وغزارة علمه. ومن ثَمَّ تطرّقت إلى أهميَّة الحكمة الإلهيَّة ومنزلتها في عقل المعصوم، وخصوصاً عند الإمام الكاظم عليه السلام. وللوقوف على حقيقة هذه الحِكَم كان لا بدَّ من التعرّض لمقاصد كلامه العقائديَّة والشرعيَّة والأخلاقيَّة، ولإتمام معرفة تلك المقاصد أتيت على ذكر التطابق الدلاليّ بين البلاغة القرآنيَّة وحكمة الإمام عليه السلام. وأخيراً تحدَّثت عن أثر الحكمة على تربية العقل. ومن ثَمَّ ختمت كلامي ببعض الاستنتاجات التي توضِّح معنى كلام الإمام الرضا عليه السلام بأنَّ إحياء الأمر هو تعلُّم علوم آل مُحَمَّد صلى الله عليه وآله، فإذا

Purposes Wisdom in Words of Imam Al-Kadhim and Its Conformity with Quranic Semantics

Muhammad Ahmed Ali Hejazy [1]

1 Islamic University / College of Islamic Studies / Department of Quranic Sciences, Lebanon;

Mohamad.hijazy@hotmail.com
PhD. In Arabic Language/ professer

Received:	Accepted:	Published:
1/7/2023	10/8/2023	30/9/2023

DOI: 10.55568/t.v15i27.55-89

Volume (**15**) Rabi'a Alawwal 1445 AH
Issue (**27**) September 2023 AD

Abstract:

Wisdom as a target a believer endeavours to pursue is of great delight for him to trace a kind of wisdom pertinent to the infallibles who employ the Quran and Ahlalbayt heritage to create their discourse. Whose manifestations come equal to the Quranic knowledge and ethics. It is of conformity between the althaqalayn [the two treasures] and Quran .
For the importance to delve into the scientific values in the knowledge of imam Al-Kadhim, his speeches, messages and linguistic connotations the study decides such a focus .Then the credentials of the divine wisdom in his mind is highly tackled to ponder over such a treasure, its truth, ethical, legal and doctrinal missions and the semantic conformity between the Quranic semantic and the sapience of the imam. In the last resort, I tackle the impact of the wisdom on educating the mind, and then there are some conclusions manifesting the content of imam Ridha speeches: reviving the cause designates learning the science of the progeny of Muhammad. When people perceive their sciences and knowledge, they adhere to them. How enormous, our duty is to convey such an authentic and divine science with wise utterance to all people!

Keywords: doctrinal missions, divine conformity, sapient words, debates, mental education.

علم الناس محاسن علومهم ومقاصد كلامهم لاتبعوهم. فكم نحن أمام مسؤولية كبيرة لإيصال هذا العِلم الإلهيّ الأصيل بألفاظ حكيمة إلى عامَّة الناس.

الكلمات المفتاحية:المقاصد العقائديَّة، التطابق الدلاليّ، محاسن كلامنا، الكلام الحكيم، المناظرات العلميَّة، الحكمة الإلهيَّة، أفصح العرب، التربية العقليَّة.

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله ربِّ العالمين وصلّى الله على سيّدنا مُحَمَّد وآله الطاهرين

المقدِّمة

من منطلق التعاليم الدينيّة التي ارتشفناها من معين أئمة أهل البيت ﷺ، والتي ركّزت على حقّ معرفة الإمام المعصوم، وخصوصاً ما ورد في العديد من فقرات زيارات الأئمة المعصومين ﷺ كالتي أخرج رواياتها الشيخ الكلينيّ في كتابه الكافي في باب فضل زيارة أبي عبدالله ﷺ[١]، أو كالتي أوردها الشيخ الصدوق في ثواب الأعمال المعنون ب: ثواب زيارة قبر الحسين ﷺ[٢]، أو كما فعل ابن قولويه في كتابه كامل الزيارات، وقد أضاف على عنوانه بشكل مباشر لعبارة: "**من زار الحسين**" كلمة: "**عارفاً بحقّه**"، حيث أورد سبعة عشر حديثاً[٣].

ولو توسّعنا في هذا المفهوم لوجدناه شاملاً لزيارة الإمام عليّ ﷺ وزيارة الإمام الرضا ﷺ كالذي ورد في بعض الروايات أنَّه: "من زاره عارفاً بحقّه وجبت له الجنَّة"[٤].

فمن هذا الباب، ندرك أنَّ معرفة حقِّ الإمام الواجب الطاعة لا تنحصر في معرفة وجوب الطاعة له، وأنَّه المعصوم الطاهر المطهّر من الدنس والخطايا بالنصّ القرآنيّ، وأنَّه أعلم من عليها وغير ذلك، بل يتعدّى الأمر ذلك إلى فهم كلامه، والوقوف على مقاصده، كفهمنا لكلام الله تعالى؛ وذلك أنَّ قول المعصوم يأتي مصدراً تشريعيًّا في الدرجة الثانية بعد الأخذ بالكتاب المعظّم بالدرجة الأولى، وأنَّ كلامهم حجَّة كحجَّة النصّ القرآنيّ، ومن شأنِّه أن يخصّص ويقيد الكتاب العزيز وغير ذلك ممَّا هو مقرَّر في علم أصول الفقه.

بل إنَّ عدم اتِّباع أحاديث الإمام المعصوم تُحيي الشريعة هو نوع من أنواع المعصية، سواء تعلّق بالجانب التشريعيّ لمعرفة الحكم التكليفيّ المستند إلى أدلَّته الفرعيَّة الصحيحة، أو تعلّق بالجوانب الأخرى من الآداب والأخلاقيّات والجوانب العقديَّة والكلاميَّة.

---

١ الكليني، مُحَمَّد. الكافي، ط٣ (طهران: دار الكتب الإسلامية، ١٣٦٥)، ٤/ ٥٨٠.
٢ الصدوق، ثواب الأعمال وعقاب الأعمال، ط١ (مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، ١٩٨٩)، ٩٢.
٣ شبكة الكفيل العالمية، ٢٠٢٣. https: / /alkafeel.net/ .
٤ الصدوق، ثواب الأعمال وعقاب الأعمال .٨٥،

ويكفي في هذا المقام ما ورد في مضمون بعض الصحاح: **" أنَّ مَنْ استخفَّ بحكم الله فعلى أهل البيت ردّ، والرادُّ علينا رادٌّ على الله، وهو على حدّ الشرك"** [٥].

من هنا تأتي أهميَّة دراسة كلام المعصومينﷺ على نحو العموم، لأنَّهم كلَّهم ينطقون من نور واحد، أو على نحو الخصوص بالانكباب على دراسة تراث كلٍّ إمام على حدة، وبخاصَّة أنَّ الأحوال الزمانيَّة السياسيَّة لبعض الأئمة ﷺ كانت جديرة لإتاحة الفرصة لإظهار وفرة علميَّة غزيرة كما في عهد الإمامين الباقر والصادقﷺ وجزء كبير من حياة الإمام الكاظم ﷺ إلى حدود زمن استلام هارون العباسيّ للحكم بعد أخيه الهادي عام (١٧٠) للهجرة [٦].

على ضوء هذه الأهميَّة لموقعيَّة الإمام في الأمّة ومسؤولياته العظمى كان من الضروريّ أن نبحث بشكل خاصّ عن مقاصد الحكمة في كلمات الإمام السابع من أئمة أهل البيت ﷺ الإمام الكاظم ﷺ، وما لها من دلالات مطابقة للدلالات القرآنيَّة والتي تظهر بوضوح معنى حديث الثقلين الأكبر والأصغر، والذي ورد عن النبيّ ﷺ في مناسبات مختلفة "وأنَّهما لن يفترقا حتَّى يردا عليَّ الحوض" [٧].

ولأجل إتمام هذا البحث العلميّ، كان من الأجدى البحث في محاور خمسة، حيث بحثت في المحور الأوَّل عن شخصيَّة الإمام الكاظم ﷺ، وأثر علمه في إبراز الكلام الحكيم، ثُمَّ بحثت في المحور الثاني عن الحكمة الإلهيّة ومنزلتها في عقل المعصوم، وفي المحور الثالث تطرّقت إلى المقاصد العقائديَّة والشرعيَّة والأخلاقيَّة في حكمة الإمام الكاظم ﷺ، ومَنْ ثَمَّ انتقلت إلى المحور الرابع لأبحث التطابق الدلاليّ بين البلاغة القرآنيَّة وحِكَم الإمام موسى الكاظم ﷺ، وأخيراً ختمت الكلام في المحور الخامس عن أثر حكمة الإمام ﷺ على التربية العقليَّة، ثُمَّ أنهيت البحث بخاتمة.

اسأله سبحانه وتعالى أن يلهمنا السّداد والتوفيق وأن يتقبّل منَّا بأحسن القبول.

والحمد لله ربِّ العالمين

---

٥ العاملي، مُحَمَّد بن الحسن الحر. وسائل الشيعة (آل البيت)، ط٢ (قم: مؤسسة آل البيتﷺ لإحياء التراث، ١٤١٤)، ١٨/ ٩٩.
٦ الحكيم، منذر. أعلام الهداية، ط١ (قم: المجمع العالمي لأهل البيت ﷺ، ١٣٨١)، ٩/ ١٦٠.
٧ المجلسي، مُحَمَّدباقر. بحار الأنوار، ط٢ (بيروت: مؤسسة الوفاء، ١٤٠٣هـ)، ج٣٣/ ١٥٢.

المحور الأوَّل: الإمام الكاظم ﷺ وأثر علمه في إبراز الكلام الحكيم.

هو إمام من أئمَّة أهل بيت رسول الله ﷺ، وهو السابع في تعدادهم، والواحد منهم يُظهرُ مناقب أهل بيت النبوَّة والعصمة والطهارة ﷺ على أنَّها من نور واحد، فالتعداد لا يضفي على تاريخ الأمّة الإسلامية إلَّا كون الرسالة الإلهية المحفوظة بعقل الأوصياء واحدة. لذلك فإنّ ما يقارب ثلاثة قرون لدور الأئمَّة ﷺ إلى بداية الغيبة الصغرى للإمام الثاني عشر ﷺ (٢٦٠)هـ، تحكي عن عمر واحد من حيث الواقع والأهداف، لأنَّ السيَاق العلميّ من صدر الرسالة إلى زمن بداية الغيبة الكبرى وانتهائها عام (٣٢٩) هـ، هو واحد لا يتعدّد ولا يتبدّل ولا يتغيّر. والإمام الكاظم ﷺ عاش خمسةً وخمسين عاماً أو ستّة وستين عاماً (١٢٨-١٨٣هـ) وما هذا إلَّا سلسلة من السياق العلميّ للوحي الإلهيّ على القاعدة القرآنية ﴿ذُرِّيَّةً بَعْضُهَا مِن بَعْضٍ وَاللهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [آل عمران ٣٤].

ومن الواضح الجليّ أنَّ كلَّ إمام من الأئمة المعصومين ﷺ كان يُثبت هذه الحقيقة حينما يشير إلى المسلمين الشيعة من أتباعه للشخص الذي سيخلفه من بعده، وما ذلك إلَّا لوجود الرابط الوثيق في سلسلة الخلافة الإلهيَّة التي لا تختلف سابقتها عن لاحقتها ولا تتبدّل كما أشرنا في بداية هذا المحور.

من هنا، كان أبوه الإمام الصادق ﷺ يُبرز هذه الوقائع أمام أصحابه وخواصه في مناسبات مختلفة، ويُعلمهم أنَّ منصب الإمامة من بعده هو لابنه موسى بن جعفر ﷺ. وممّا قاله ﷺ بحقَّه: **" قد وهب الله لي غلاماً خيّر من برأ الله"**[٨].

وقال ﷺ: **"يا عيسى[أحد أصحابه وهو عيسى شلقان]، إنَّ ابني الذي رأيته، لو سألته عمّا بين دفَّتي المصحف لأجابك فيه بعلم. قال عيسى: ثُمَّ أخرجه ذلك اليوم من الكتاب، فعلمت عند ذلك أنَّه صاحب هذا الأمر"** [٩].

فاستعمال الإمام الصادق ﷺ عبارة: **"...إنَّ ابني هذا، إلى آخر الحديث الذي ذكرناه أعلاه "**، يعني ذلك أنَّه الوارث الحقيقيّ للعلوم الإلهيَّة، والكاشف عن الخزائن المعرفيَّة المستودعة عند أهل بيت رسول الله ﷺ.

٨ المجلسي، ٤٨/ ٢٤.
٩ الطبري، مُحَمَّد بن جرير. دلائل الإمامة، تحقيق. قسم الدراسات الإسلامية - مؤسسة البعثة -، ط١ (قم، ١٤١٣)، ٢٤.

من هنا، وبسبب ما ظهر من علوم الإمام الكاظم الباهرة، والكرامات الساطعة، تميّزت شخصيّته عن العلماء وأرباب المذاهب الفقهيَّة والمدارس الكلاميَّة كافَّة ، وبرز من جديد ريادة البيت النبويّ الشريف، وتزاحمت على بابه العلماء، وأحتشدت تحت منبره لينهلوا من نمير علمه ما يزيد عن ثلاثة عقود، وهي الفترة التي تسلّم فيها مهامّ الإمامة بعد أبيه ﷺ.

وعلى الرغم من شدّة المضايقات والملاحقات والاضطهاد والقتل على الظنَّة، وإبعاد محبي أهل البيت ﷺ عن إمامهم، إلَّا أنَّه بقي موئلاً للعلماء، وزاداً وضّاءً للمسترشدين، وحجّةً بالغة على الجاحدين، وخصوصاً في فترة حكم الرشيد التي كانت تُعَدُّ من أصعب الأيَّام وأشدِّها على الإمام ﷺ، لِما لاقاه وتحمَّله من الظلم والحبس في السجون، حتَّى قضى شهيداً مسموماً بأمر من الحاكم العباسيّ.

وعند تتبُّع حركة الإمام ﷺ العلميَّة، يُلحَظ أنَّ عطاءه العلميّ والمعرفيّ ظهر في عددٍ من الاتجاهات أهمّها:

١-الاتِّجاه المرتبط بتعزيز الرواية وعمليَّة الاستنباط والأخذ بالأحاديث الصحيحة.

في معرض حديثه لأحد المسترشدين قال له ﷺ: **" يا أبا عليّ، ما أحبّ إليَّ ما أنت فيه وأسرّني، إلَّا أنَّه ليست لك معرفة، فاطلب المعرفة، قال: جعلت فداك وما المعرفة؟ قال: اذهب فتفقّه واطلب الحديث، قال: عمَّن؟ قال: عن فقهاء أهل المدينة، ثُمَّ اعرض عليَّ الحديث، قال: فذهب فكتب ثُمَّ جاءه فقرأه عليه فأسقطه كلَّه ثُمَّ قال له: اذهب فاعرف المعرفة وكان الرجل معنيًّا بدينه فلم يزل يترصّد "** [١٠].

فالمعرفة عند الإمام هي التخصّص بعلم الحديث.

وقد يسأل سائل أنَّه لماذا كان الأئمَّة ﷺ يحثُّون أصحابهم وتلامذتهم على التمسّك بالحديث، وأنَّ الفقيه تُعرف منزلته بقدر درايته للرواية، ولا يذكرون في مثل هذه الروايات -في بعضها- وفي السياق ذاته ضرورة أن تُضمَّ قراءة الرواية إلى القرآن.

١٠ الصفار، مُحَمَّد بن الحسن. بصائر الدرجات، ط١ (بيروت لبنان: شركة الأعلمي للمطبوعات، ١٤٠٤هـ)، ٢٧٥.

والجواب:

أوَّلًا: لقد حدّد الأئمَّة ﷺ قاعدة علميَّة أساسيَّة تعرّض إليها علماء الأصول، وهي أنَّ كلَّ ما عارض كتاب الله فاضربوه عرض الحائط [١١]، **ورد أيضاً أنَّ ما يخالف كتاب الله هو زخرف وباطل** [١٢].

ثانياً: يظهر بشكل واضح أنَّ الاختلافات الفقهيَّة لم تكن غالباً مرتكزة على فهم الكتاب لكونه موضع إجماع عند المسلمين وهو من ضروريَّات الإسلام، بمعزل عن بعض الآراء الشاذَّة في مسألة الزيادة والنقصان.

ثالثاً: ظهور النقاشات الاجتهاديَّة والعلميَّة في الإطار الروائيّ، إذ إنَّ كلَّ مذهب فقهيّ كان يمتاز عن غيره بحسب النقولات المتوفِّرة بين يديه. حتَّى ورد **أنَّ الرشد في خلاف مَنْ نصب العداء لآل مُحَمَّد** ﷺ.

فأتباع أئمة أهل البيت ﷺ لا يأخذون إلّا برواية أئمتهم المعصومين، وأتباع المذاهب الإسلاميَّة الأربعة -على سبيل المثال- لم يأخذوا إلّا ما ورد عن أئمتهم -إلّا ما شذَّ وندر. فلذلك، كانت الرواية الشارحة للآية هي مسرح المناظرات والمناقشات العلميَّة والفقهيَّة، فضلاً عن الاحتجاج على الطرف الآخر بالمنهجيَّة الروائيَّة التي تظهر حقائق استنباطية مفحمة وفق المنهج الموضوعيّ للقرآن الكريم.

ومن باب المثال، لا الحصر، **فقد سأل الحاكمُ العباسيّ -المعروف بالمهديّ- الإمامَ الكاظم ﷺ أن يستدلَّ على تحريم الخمر من الكتاب، معلّلاً ذلك بأنَّ الناس يعرفون ذلك ولا يعرفون موضع التحريم وأساسه التشريعيّ. فقال له الإمام الكاظم ﷺ بل هي محرّمة في كتاب الله، فقال المهديّ العباسيّ: في أيِّ موضع هي محرّمة؟** فقال ﷺ: قوله عزَّ وجلَّ: ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالْإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾ [الأعراف ٣٣].

على أنَّ الإثم هي الخمرة بعينها – وذلك بتفسير معنى الإثم من آية أخرى – كما في قوله تعالى: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَا﴾ [البقرة ٢١٩]. **فالإثم في كتاب الله هو الخمر والميسر، وإثمهما كبير كما قال الله عزَّ**

١١ المظفر، مُحَمَّد رضا. أصول الفقه، ط٤ (بيروت: دار التعارف، ١٩٨٣)، ٢/ ٢٢٢.
١٢ المظفر، ٢/ ٢٢٢.

وجلَّ. فالتفت المهديّ العباسيّ حينئذٍ إلى عليّ بن يقطين قائلاً له: هذه والله فتوى هاشميَّة[١٣].

ومن جملة النماذج التي تُبرز أيضاً اهتمام الإمام عليه السلام بالقرآن الكريم هي:

١-فقد روي عنه عليه السلام أنَّه روى عن آبائه عليهم السلام قال: (سُئل رسول الله ـ صلى الله عليه وآله ـ عن قوله تعالى: (وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلًا) قال: بيّنه تبياناً، ولا تنثره نثر الرمل، ولا تهذّه هذَّ الشعر، قفوا عند عجائبه، وحرّكوا به القلوب، ولا يكون همّ أحدكم آخر السورة) [١٤].

٢-وروي أنَّه قال: " يا هشام قد جعل الله ذلك دليلاً على معرفته بأنَّ لهم مدبّراً، فقال: ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومُ مُسَخَّرَاتٌ بِأَمْرِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ وقال: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ ثُمَّ لِتَكُونُوا شُيُوخًا وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّى مِن قَبْلُ وَلِتَبْلُغُوا أَجَلًا مُّسَمًّى وَلَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [١٥].

٣-وقال عليه السلام: "يا هشام ثُمَّ خوّف الذين لا يعقلون عقابه فقال تعالى: ﴿ ثُمَّ دَمَّرْنَا الْآخَرِينَ وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِم مُّصْبِحِينَ وَبِاللَّيْلِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ وقال: ﴿إِنَّا مُنْزِلُونَ عَلَى أَهْلِ هَذِهِ الْقَرْيَةِ رِجْزاً مِّنَ السَّمَآءِ بِمَا كَانُواْ يَفْسِقُونَ وَلَقَدْ تَّرَكْنَا مِنْهَآ ءَايَةَ بَيِّنَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾) [١٦].

رابعاً: من المسلَّم به بين المسلمين أن حفظ الكتاب ورعايته وصونه والاهتمام به مسألة واجبة، وعقيدتنا أنَّ أئمة أهل البيت عليهم السلام هم الأعرف بمداليل الكتاب، وهم خزّان علم رسول الله صلى الله عليه وآله، ولذلك لم يقدروا على التنكّر لهذه الحقيقة، بل كانوا يذهبون إلى الاستناد إلى الرواية بلحاظ أنَّ مساحة الرواة فيها لا تُعَدُّ ولا تُحصى من الكثرة والعدد، وبالإمكان الاعتماد على روايات تختلف عمَّا يطرحه أي طرف آخر، خصوصاً أنَّ المنهج الروائي عند المذاهب الفقهيَّة الأخرى تبرز سند الرواية المتّصل برسول الله صلى الله عليه وآله بغض النظر عمَّا فيه من الغثِّ والسمين. لذا، ولأجل ألّا يتوهّم أحد من العلماء والرواة أنَّ الأئمة المعصومين من آل الرسول يتكلّمون ويفتون على نحو مستقلّ عمَّا قاله النبيّ صلى الله عليه وآله، فقد كانوا حريصين كلَّ الحرص في كثير من الروايات، بل معظمها، أن يوصلوا كلامهم ويرجعوه إلى كلام جدّهم رسول الله صلى الله عليه وآله.

---

١٣ المجلسي، بحار الأنوار .١٤٩ / ٤٨،
١٤ المجلسي، ٨٩/ ٢١٨.
١٥ الحرّاني، ابن شعبة. تحف العقول، ط٢ (قم: مؤسسة النشر الإسلامي التابعة لجماعة المدرسين، ١٤٠٤)، ٣٨٤.
١٦ الكليني، الكافي.١٤ / ١،

ومن الأمثلة على ذلك وبإسناد عن أكثر من واحد، عن الإمام موسى بن جعفر، عن أبيه، "**وعن آبائه** عليهم السلام، **قال: قال رسول الله** صلى الله عليه وآله: **الرجل الصالح يجيء بخبر صالح، والرجل السوء يجيء بخبر سوء**" [١٧]. فهذه طريقة أئمة أهل البيت عليهم السلام في تبيان المسائل العلميَّة المتّصلة بمدينة العلم جدّهم الحبيب المصطفى صلى الله عليه وآله.

إذاً، على ضوء هذه التعليلات وغيرها فإن طريق الوصول إلى الكتاب كمصدر تشريعيّ أوَّل، هو من خلال المصدر التشريعيّ الثاني والشارح للكتاب، أي الحديث. ولأنَّه بهذا القدر من الأهميّة والخطورة فكان الإمام عليه السلام وبقية الأئمة عليهم السلام يحضّون المسلمين عموماً، وشيعتهم خصوصاً، على فهم الحديث ودرايته وأخذه من أهله، وألّا يكون متعارضاً مع آيات الكتاب كما أسلفنا.

٢- الاتِّجاه المرتبط بالمناظرات العلميَّة

من المعلوم أنَّ طريقة عرض الأفكار وتمسّك كلّ ذي رأي برأيه يعتمد على الاستدلال المنهجيّ العلميّ، فلذلك لم تكن في تلك الحقبات التاريخيَّة الأولى للإسلام، - وبعد ارتحال رسول الله صلى الله عليه وآله إلى العليّ الأعلى- على ما هي عليه اليوم بطرح الأبحاث العلميَّة والاتِّكاء على الكتابة أكثر منها من الاستناد إلى الحوارات والمناظرات بل في رأيي أنَّ عملية الاستدلال والوصول إلى إقناع الطرف الآخر والاحتجاج عليه بحجج بالغة كان عن طريق المناظرات الحيويّة المباشرة، بل كان هناك عُرف علميّ عامّ بانتقاد الرأي الآخر عن طريق المناظرة والتي تهدف إلى تغيير القناعات وتبديلها وعدم الاكتفاء بما يعتقد وما يكتنفه من الرأي العلميّ.

لذلك كان الأئمة عليهم السلام يحثّون أصحابهم على مخالطة العلماء ومناظرتهم وإيصال الأفكار السليمة إليهم، لأنَّه من المعلوم أنَّ ذلك يُعبِّر عن سعة في العلوم، وقدرة على تفنيد المسائل الخلافيَّة، والتأكيد على أحقيَّة الطرح، وأنَّ ما يطرحه الإمام المعصوم من أئمة أهل بيت رسول الله صلى الله عليه وآله يُمثِّل الإرث الواقعيّ والحقيقيّ لعلم رسول الله صلى الله عليه وآله. وأخطر ما في ذلك هو الاعتماد على نقل خاطئ منسوب إلى رسول الله صلى الله عليه وآله، سواء أكان في الفقه الأكبر أم في الفقه الأصغر، والإفتاء بغير علم، وهنا تكمن البلوى والطامة الكبرى! لهذا قال الإمام الكاظم عليه السلام: " **من أفتى الناس بغير علم لعنته ملائكة الأرض وملائكة السماء**" [١٨].

١٧ المجلسي، بحار الأنوار .٨٤ / ٧٤،
١٨ المفيد، مُحَمَّد. رسالة في المهر، ط٢ (بيروت: دار المفيد للطباعة والنشر والتوزيع، ١٤١٤)، ٢٨١.

من هنا، أليس كلّ هذا الكمّ من اللعن والطرد من ساحة الرحمة الإلهيَّة إلّا لاعوجاج المنهج الذي يقوم على مفاهيم الإمّعيَّة والولائج الضالَّة!

ومن الشخصيَّات المشهود لها في عصر الإمامين الصادق والكاظم عليهما السلام هشام بن الحكم الذي كان مفخرة أصحاب الأئمة عليهم السلام وأصحابهم لبلاغته، وقوَّة محبَّته الدافعة، ولتمتُّعه بمواصفات علميَّة عالية منحته القدرة على إفحام الآخرين.

وبحسب تتبعنا لقدرته الباهرة في المناظرة يتَّضح لنا -وهذا ما أشرت إليه سابقاً- إلى التربية القرآنيَّة وتعهّد الكتاب كان منطلقاً عظيماً للانتصار على الآخر ببيان علميّ رشيق وبديع. وقد سُجِّلت له مناظرات مع شخصيَّات عديدة كالبرمكيّ، والنظّام، ومع ضرار الضَّبَّيِّ[١٩] وغيرهم. ومن الأمثلة على قدرة هشام بن الحكم الباهرة في مقارعة المعاندين ما حصل في مجلس هارون العباسيّ. فقد روي أنَّ الأخير قال: لجعفر بن يحيى البرمكيّ : إنّي أُحبّ أن أسمع كلام المتكلّمين من حيث لا يعلمون بمكاني فيحتجّون عن بعض ما يريدون ، فأمر جعفر المتكلّمين فأُحضِروا داره ، وصار هارون في مجلس يسمع كلامهم ، وأرخى بينه وبين المتكلّمين ستراً ، فاجتمع المتكلّمون وغصّ المجلس بأهله ينتظرون هشام بن الحكم ، فدخل عليهم هشام وعليه قميص إلى الركبة وسراويل إلى نصف السّاق، فسلّم على الجميع ولم يخصّ جعفراً بشيء[٢٠].

فقال له رجلٌ من القوم: لِمَ فضّلت عليّاً على أبي بكر، والله يقول: ﴿ ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللهَ مَعَنَا﴾[٢١]. فقال هشام : فأخبرني عن حزنه في ذلك الوقت أكان للهّ رضا أم غير رضا؟ فسكت ! فقال هشام: إن زعمت أنَّه كان للهّ رضا فلمَ نهاه رسول الله ـ صلى الله عليه وآله ـ فقال : " لا تحزن " ؟ أنهاه عن طاعة الله ورضاه ؟ وإن زعمت أنَّه كان للهّ غير رضا فلم تفتخر بشيء كان للهّ غير رضا ؟ وقد علمت ما قال الله تبارك وتعالى حين قال: ﴿ ثُمَّ أَنزَلَ اللهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ ﴾ ولكنّكم قلتم وقلنا وقالت العامّة : الجنة اشتاقت إلى أربعة نفر: إلى عليّ بن أبي طالب عليه السلام،

١٩ المجلسي، بحار الأنوار .١٩٩ / ٤٨،
٢٠ المجلسي، ١٠/ ٢٩٧.
٢١ المجلسي، ٣٥/ ٣٩١.

والمقداد بن الأسود ، وعمّار بن ياسر ، وأبي ذرّ الغفاريّ [٢٢]. فأرى صاحبنا قد دخل مع هؤلاء في هذه الفضيلة ، وتخلّف عنها صاحبكم ، ففضّلنا صاحبنا على صاحبكم بهذه الفضيلة .

وقلتم وقلنا وقالت العامّة: إنّ الذابّين عن الإسلام أربعة نفر: عليّ بن أبي طالب ﷺ ، والزبير بن العوّام ، وأبو دجانة الأنصاريّ، وسلمان الفارسيّ، فأرى صاحبنا قد دخل مع هؤلاء في هذه الفضيلة وتخلّف عنها صاحبكم، ففضّلنا صاحبنا على صاحبكم بهذه الفضيلة. وقلتم وقلنا وقالت العامّة: إنّ القرّاء أربعة نفر: عليّ بن أبي طالب ﷺ ، وعبد الله بن مسعود، وأُبي بن كعب ، وزيد بن ثابت، فأرى صاحبنا قد دخل مع هؤلاء في هذه الفضيلة، وتخلّف عنها صاحبكم، ففضّلنا صاحبنا على صاحبكم بهذه الفضيلة . وقلتم وقلنا وقالت العامّة: إنَّ المطهّرين من السماء أربعة نفر: عليّ ابن أبي طالب وفاطمة والحسن والحسين ﷺ، فأرى صاحبنا قد دخل مع هؤلاء في هذه الفضيلة وتخلّف عنها صاحبكم، ففضّلنا صاحبنا على صاحبكم بهذه الفضيلة .وقلتم وقلنا وقالت العامّة: إنَّ الأبرار أربعة: عليّ بن أبي طالب وفاطمة والحسن والحسين ﷺ، فأرى صاحبنا قد دخل مع هؤلاء في هذه الفضيلة وتخلّف عنها صاحبكم، ففضّلنا صاحبنا على صاحبكم بهذه الفضيلة.

وقلتم وقلنا وقالت العامّة: إنَّ الشهداء أربعة نفر: عليّ بن أبي طالب ﷺ، وجعفر وحمزة وعبيدة بن الحارث بن عبد المطلب، فأرى صاحبنا قد دخل مع هؤلاء في هذه الفضيلة، وتخلّف عنها صاحبكم، ففضّلنا صاحبنا على صاحبكم بهذه الفضيلة .قال: فحرّك هارون الستر وأمر جعفر الناس بالخروج، فخرجوا مرعوبين، وخرج هارون إلى المجلس .فقال: من هذا فوالله لقد هممت بقتله وإحراقه بالنار[٢٣].

ومن الجدير ذكره أنَّ هذه القدرة البلاغية عند هشام بن الحكم وأمثاله ما هي إلّا ذَرة من قدرة إمامه الكاظم ﷺ وحكمته ومعارفه القرآنيَّة.

٢٢ المجلسي، ٣٥/ ٣٩١.
٢٣ المجلسي، ١٠/ ٢٩٧.

٣-الاتِّجاه التعليميّ والتربويّ

في الوقت الذي كان يحرص فيه الإمام الكاظم ﷺعلى إيضاح حقيقة أمر أهل البيت ﷺ من الناحية العقائديّة وتبيان آرائه الفقهيَّة الأصليَّة، فإنَّه انكبَّ على تربية طلابه وتعليمهم، لأنَّ من خصائص شخصيَّة الإمام المعصوم أنَّه لا يكتفي بالتلقين العلميّ، بل يعمدُ أيضاً إلى غرس المفاهيم والأصول والقواعد العلميَّة في عقول طلّابه.

فعلى مدى ثلاثة عقود ونيِّف حرص ﷺ على بناء الجماعة الصالحة التي تُكمل طريقه وطريق آبائه ﷺ.

وممّا ورد عنه ﷺ أنَّه كان يوصي عليّ بن سويد وهو في السجن: وأمَّا ما ذكرت يا عليّ ممَّن تأخذ معالم دينك؟ لا تأخذنَّ معالم دينك عن الخائنين الذين خانوا الله ورسوله وخانوا أماناتهم[٢٤].

إنَّ منهج الإمام ﷺالتربويّ أظهر حرصاً شديداً على معرفة المصدر العلميّ، وكيف ينبغي أن يتربّى عليه طلّابه، وهو مطابق لكتاب الله تعالى، كما في قوله تعالى: ﴿فَلْيَنظُرِ الْإِنسَانُ إِلَىٰ طَعَامِهِ﴾ [عبس ٢٤]، أي وبحسب جدّه الإمام الباقر ﷺ: **"أن ينظر عمَّن يأخذ علمه"** [٢٥].

ولو أمْعَنّا النظر في جزء من تراثه العلميّ كما في وصاياه لهشام بن الحكم المليئة بالغزارة العلميَّة، لَلَحَظنا التركيز الكبير على دور العقل في بلوغ حقيقة التوحيد وسائر الشهادات الحقّة وحجيّته الباطنيَّة إلى جانب الحجَّة الظاهريَّة، وهي الرسل.

وممّا لا شكَّ فيه أنَّها تُعبِّر عن منهج لتربية العقل، ومسلكاً لوراثة الحكمة النظريَّة والعمليَّة. بل كان ﷺ يربط في تلقينه العلميّ وتربيته بين الدور التعليميّ والأثر الإيمانيّ بحيث يفهم المتعلّم أنَّه ليس مشروع عالم فحسب، بل هو أيضاً منقذ للناس من الضلال، لأنَّه ليس بالضرورة أن يكون كلُّ من تعلَّم مربيًّا، فبينهما عموم وخصوص مطلق، إذ إنَّ كلَّ مربٍّ إلهيّ عالم وليس كلَّ عالم هو مربٍّ، وشتّان بينهما.

فلاحظ، وعلى سبيل المثال، ما قاله الإمام الكاظم في هذا الإطار: **" فقيه واحد يُنقذ يتيماً من أيتامنا المنقطعين عنَّا وعن مشاهدتنا بتعليم ما هو محتاج إليه أشدّ على إبليس من ألف عابد"** [٢٦].

والإنقاذ يحتاج إلى الأمرين معاً.

---

٢٤ المجلسي، ٢، ٨٢.
٢٥ المفيد، الاختصاص، ط١ (قم، ايران: مؤسسة النشر الإسلامي، د.ت.) .٤،
٢٦ المجلسي، بحار الأنوار .٥ / ٢،

لذلك، ومن هذا المبدأ فقد كان ﷺ يُميِّز العلوم النافعة عن غيرها، وهي التي تنفع المسلم في الدنيا والآخرة، وهذا هو دور المربّي والمعلّم الحقيقيّ الذي ينصح ولا يغشّ طالبي الحكمة.

وممّا قاله ﷺ: **"أولى العلم بك ما لا يصلح لك العمل إلّا به، وأوجب العمل عليك ما أنت مسؤول عن العمل به، وألزم العلم لك ما دلَّك على صلاح قلبك وأظهر لك فساده، وأحمد العلم عاقبةً ما زاد في عملك العاجل، فلا تشتغلنَّ بعلم ما لا يضرّك جهله، ولا تغفلنَّ عن علم ما يزيد في جهلك تركه"** [٢٧].

إنَّه الكلام الحكيم الذي يأخذ بيد المتعلّم إلى سبيل الهداية والرشاد، وهذا هو الهدف الأعظم من التربية والتعليم.

٤- اتِّجاه التأليف والكتابة

لقد جهد الإمام ﷺ في توريث أصحابه العلوم المختلفة وبخاصَّة ما يتعلَّق بالأصول والفروع، وقد دوّنت العديد من المصنَّفات التي أشارت إلى حكم الإمام ﷺ وعلمه كما في مسائل عليّ بن جعفر، والأشعثيات، وقد جهد بعض العلماء والمختصّين على جمع آثار الإمام الكاظم ﷺ في عدد من المجلّدات التي ذخرت بالأبواب العلميّة والمعرفيَّة المتنوّعة. وهذا إن دَلَّ على شيء فإنَّه يدلُّ على أنَّ الإمام ﷺ كان محاطاً بمجموعة كبيرة من الأصحاب الفقهاء الذين أدركوا عظمة تدوين الحديث وبقية الفوائد العلميَّة. وقد وصل عدد الرواة الذين رَووا عنه إلى ما يقارب (٦٣٨) راوياً، ويمكن لنا في أدنى تأمُّل إذا تصفَّحنا مُسند الإمام الكاظم ﷺ أن ندرك ذلك التنوّع في الأبواب العلميَّة كافَّة، سواء أكان على مستوى الفروع الفقهيَّة والقواعد الأخلاقيَّة والسُّنن والآداب أم غيرها.

أمام هذه الشخصيَّة الإلهيَّة الكاملة المستودَعة أسرار السماء والأرض والراسخة في العلم لا يُتوقّع إلّا أن يرشح منها معاني الحِكَم التي تُعَدُّ دواءً للقلوب والفكر، ولا يمكن لأيّ ذي عينين أن يتجاوزها ويتغاضى عنها.

وهذا ما سنتكلّم عنه في المحاور التالية.

٢٧ الريشهري، مُحَمَّد. ميزان الحكمة، ط١ (دار الحديث، ١٤١٦)، ج٣/ ٢١٠٦.

المحور الثاني: الحكمة الإلهيَّة ومنزلتها في عقل المعصوم عليه السلام

بين الفكر الحكيم وغير الحكيم تنقسم عقول الناس، وتُعْرَفُ منازلهم، فشتَّان بين مَنْ يكون كلامه دواءً وبين من يكون داءً. ولذلك كلَّما ازدادت عناية الإنسان بنفسه واستقام على جادَّة الشريعة وحفظ حدود الله تكاملت في شخصيَّته مجامع الصواب وبديع البيان، وظهرت عليه هيبة الكلام، وتقاطرت إلى محضره النفوس العطش لترتوي من معين علمه وحكمته.

ولأنَّ مقام العصمة في النبوّة والإمامة يمثّل الإنسان الكامل والخليفة الأعلى، فإنَّ القرآن الكريم خصَّ دورَ النبيّ صلى الله عليه وآله التبليغيّ بدور التزكية وتعليم الكتاب والحكمة. ولو لم تكن الحكمة أعلى درجات الإنارات العقليَّة والإلهامات الربَّانيَّة لما أفردها على حدة، قال تعالى: ﴿لَقَدْ مَنَّ اللهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ [آل عمران ١٦٤].

وفي موضع آخر، أشارت الآيات في الكتاب العزيز إلى أنَّ الحكمة هي الخير الكثير، كما في قوله تعالى: ﴿يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَن يَشَاءُ وَمَن يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا﴾ [البقرة ٢٦٩].

إذاً، لو لم تكن للحكمة هذه الريادة لما وصفها القرآن بالخير الكثير! فكيف إذا تواردت الحكمة عن عقل المعصوم ولسانه فتترك أثراً في نفوس السامعين، وتخلّد في ذاكرتهم الجماعيّة عبر التاريخ، وذلك لتحوّلها إلى مقياس ومعيار للاهتداء والاسترشاد.

فالرأي الحكيم بحسب التعريف اللغويّ هو الرأي الموافق للحقِّ والصواب، وهو العلّة التي تكشف عن حقيقة الأمر الإلهيّ ونهيه، وإذا قيل: فلانٌ من أهل الحكمة، أي أنَّه من أهل العلم والفلسفة والمعرفة والتبصُّر* .

وإذا كانت الحكمة سِمَةً عظيمة يتَّسم بها الأشخاص العاقلون، وهم قِلَّة عبر التاريخ، فلذا لا تتوفّر في أيّ شخص كان، دون أن يتميّز بخصال يندر وجودها عند أغلب الناس.

فالحكمة بحسب تعبير المعصوم عليه السلام: "**الحِكمَةُ** شَجَرةٌ تَنْبُتُ في القَلبِ ، **وتُثْمِرُ على اللِّسانِ** "[٢٨]. وشرطها الأساسّي الزهد في الدنيا، وترك الملذّات والإغراءات، ومقت الفانيات،

٢٨ الريشهري، محمد. موسوعة العقائد الإسلامية، ط١، ١٤٢٥، ٢/ ٧٢.
* قال الآلوسي في تفسير روح المعاني: أنّ فيها تسعة وعشرين قولاً لأهل العلم.

بمعنى عزل الدنيا وبريقها عن محيط النفس. فالحكيم المتألّه يتجرّد من علائق المادِّيَّات، وتصفو نفسه إلى معالي الروحانيَّات، وتنفضح الدنيا أمامه، ويراها على حقيقتها، فيُقبل على الله بصفاء فكريّ وروحيّ دون أن يُدنّسه شيء من نجاسات الأوهام والخيالات الباطلة، فينثر لسانه لآلئ من الدرر والمعاني العذبة حتَّى يكون بيانه كالسحر، "**إنَّ مِن البيانِ لَسِحْرًا، أو إنَّ بعضَ البيانِ لَسِحْرٌ**"[٢٩]، فيتسلل إلى أسماع المنصتين، ويفعل فعله فيهم دون استئذان. وما هذا كلّه إلَّا بسبب جهاد النفس وتربيتها على الارتباط بالله الواحد الأحد.

لذا، ورد في الحديث: " **مَن زهد في الدنيا أثبت الله الحكمة في قلبه، وأنطق بها لسانه**"[٣٠]. وحينما تكون النفس الإنسانيَّة نتاج معدن النبوَّة ومعارج الوحي الإلهيّ، وهي نفس المعصوم عليه السلام، المكنونة في عمقه الحقائق الإلهيَّة كافَّة والقرب التوحيديّ، فإنَّها ستتحول إلى سراج ربانيّ يشرق جواهر الحكم ومعادن الكلم حتَّى ترتقي في حجيِّتها ودلالتها إلى مقام الاستدلال والإرشاد، بل تصبح سمة أساسيَّة، وجزءاً لا يتجزأ من عقل المعصوم عليه السلام الفيّاض. حينها تلتقي إرادة السماء الباعثة على الاعتصام الذاتيّ مع إرادة الأرض المتجسّدة في الإنسان الكامل، فتخرج مثل هذه الشخصيَّة المعصومة مثالاً عمليًّا مليئاً بالحكمة بكلِّ أبعادها ومستوياتها.

من هنا رُوي عن الإمام عليّ عليه السلام أنَّه قال: " **لا حكمة إلَّا بعصمة**"[٣١]، فإنَّ المعتصم بالله غلَبَ شهوته، فظهرت منه معالم تغلُّب الحكمة على أقواله وأفعاله، فنتَج عن ذلك حضور المعصوم الحكيم الذي صار وجوده ضروريًّا بين أبناء البشر. وهذه الحكمة مطابقة لقوله تعالى: ﴿وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ﴾ [الحجر ٩٩].

ومن هنا يُفهم معنى أنَّ الثقلين القرآن والعترة الطاهرة معاً لا يفترقان، وأوجب الرسول صلى الله عليه وآله التمسّك بهما لأنَّهما وجهان: أحدهما صامت، والآخر ناطق، وكلاهما يُعبّران عن مشارب العلم الإلهيّ في الأرض.

أمام هذه الحقيقة، فإنَّ الإمام المعصوم، وبحسب مورد بحثنا، وهو الإمام موسى الكاظم عليه السلام، ظهرت في منهجه العلميّ عيون الحكمة، وأدّى دوره الحكيم الذي يُكمل تلك السلسلة الإلهيّة الحكيمة، حتَّى قال عنه والده الإمام الصادق عليه السلام: " **فيه علم الحكم،**

٢٩ المجلسي، بحار الأنوار. ٤١٣ / ٦٨،
٣٠ الكليني، الكافي، ج٢/ ١٢٨.
٣١ الريشهري، محمد. العلم والحكمة في الكتاب والسنة، ط١، د.ت. ٩٤.

والفهم والسخاء والمعرفة في ما يحتاج الناس إليه في ما اختلفوا فيه من أمر دينهم، وفيه حسن الخلق، وحسن الجوار، وهو باب من أبواب الله عزَّ وجلَّ" [٣٢].

وقال فيه ابن الصّباغ المالكيّ: **"وأمَّا مناقبه وكراماته الظاهرة، وفضائله وصفاته الباهرة، فتشهد له بأنَّه قبة الشرف وعلاها، وسما إلى أوج المزايا فبلغ أعلاها، وذلّلت له كواهل السيادة وامتطاها، وحكم في غنائم المجد فاختار صفاياها فاصطفاها"** [٣٣].

وممّا لا شكَّ فيه أنَّ قدرته الهائلة على العبادة، وقضائه أكثر أوقاته بين سجود وذكر ودعاء وصلاة، وخصوصاً في مرحلة التضييق عليه في سجن الرشيد جعلته ﷺ سراجاً مضيئاً بعبادته حتَّى أصبح ضعيف البنية، فهو قائم بالليل صائم بالنهار، قارئاً لكتاب الله، ومتابعاً لشؤون شيعته. فظهرت ببركة تلك المجاهدات العظيمة كرامات وقدرات بالغة وصلت إلى أسماع المؤمنين حتَّى وصل إلى أوج التأثير على أمّته. ولأنَّه امتلك الحكمة والعلم وقدرة التاثير على القريب والبعيد، كان كلَّما بانت كراماته كان هارون العبّاسيّ يزداد خوفاً منه على حكمه وخلافته، ولم يكن في يده حيلة إلّا ممارسة أقصى وسائل التغريب، عن أهله والتعذيب عسى أن ينطفئ وميض حكمته!

إلّا أنَّ التوفيق الإلهيّ والإصرار على الاستمرار في دور الإمامة مهما تعاظمت الصعوبات جعلاه ينجح نجاحاً فريداً في إثبات الحقِّ الإلهيّ في الأرض، وذلك عبر تبيان الأحكام الشرعيَّة، ومقارعة الظلم، وإظهار أحقيَّة أهل بيت رسول الله بقيادة الأمّة الإسلاميَّة.

ومن الجدير ذكره أنَّ ما تركه الإمام الكاظم ﷺ من مواقف وكلمات وأحاديث ومفاهيم في مختلف العلوم كان لها مقاصد عديدة، ولو تمعَّنا فيها لوجدناها ترجمة تفصيليَّة لمعاني القرآن الكريم وبلاغته، وهذا ما سنتحدث عنه في تضاعيف البحث.

المحور الثالث: المقاصد العقائديَّة والشرعيَّة والأخلاقيَّة في حكمة الإمام الكاظم ﷺ

الكلام وسيلة أساسيَّة لبناء الحوار وأواصر العلاقات المتينة والسليمة بين البشر، وهو ترجمان العقل، وكما قال الإمام عليّ ﷺ: **"المرء مخبوء تحت لسانه، تكلّموا تُعرفوا"** [٣٤]، فإنَّ

٣٢ الصدوق، عيون أخبار الرضا ﷺ، تصحيح وتعليق وتقديم. حسين الأعلمي، ١٤٠٤، ٢/ ٣٤.
٣٣ لجنة الحديث في معهد باقر العلوم ﷺ، موسوعة شهادة المعصومين ﷺ، ط١ (قم: انتشارات نور السجاد، ١٣٨١)، ج٣/ ١٥٠.
٣٤ الريشهري، ميزان الحكمة .٢٧٧٦/ ٤،

الإنسان يبقى مجهولاً إلى أن يتكلّم. بل يمكن القول: إنَّ تعدّد الألسن واللغات، ما هي إلَّا دليل على التنوّع البشريّ وتجاذب الثقافات والحضارات لإعمار الكون. فالكلمة رسول العقل عند أهل التحاور وملتقى الإنسانيَّة، ومعجزة من معجزات الخلق والإبداع.

إنَّ كلَّ ما تركه البشر من مقالات وكتابات لها دوافعها ومقاصدها وأسباب نشوئها، سواء أكانت بدافع الخير والبناء أم كانت بدافع الشرِّ والتهديم، وأهمّ ما فيها هو المخزون العلميّ الهادف الذي يساعد على إكمال المسيرة البشريَّة في الأرض. ولأجل معرفة القيمة للكلام فقد جاءت الرسل، وأُنزلت الكتب السماويّة التي ملؤها الكلام الهادي إلى الصلاح والتي أمرت بالاهتداء بهديها والمشي على أساس مقاصدها، قال تعالى: ﴿الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ﴾ [الزمر ١٨].

ولأجل معرفة هذه الحقيقة فإنَّ كلَّ ما صدر عن الإمام المعصوم، ومنهم الإمام الكاظم عليه السلام هو يتمثَّل بالحكمة التي تهدف إلى تصويب الخطأ، وإحقاق الحقِّ، والهداية إلى الرشد وذلك على قاعدة الآية الشريفة: ﴿قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ الْجِنِّ فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ وَلَن نُّشْرِكَ بِرَبِّنَا أَحَدًا﴾ (الجن ١-٢)، وكذلك قول المعصوم عليه السلام، فله أهدافه ومقاصده التي تُنظّم فكر الإنسان، وتُنقّيه من الشبهات والأفكار المشوّهة للحقائق.

لذلك، وبحسب تتبع تراث الإمام الكاظم عليه السلام (العبد الصالح) نلحظ ثَمَّة مقاصد بنائيَّة للفرد المسلم، سواء كانت على المستوى العقائديّ والشرعيّ أم على المستوى الأخلاقيّ أم غير ذلك.

ورعاية لتنظيم الأفكار ومنهجيّتها فإنّي سأبحثها وفقًا لتقسيمات ثلاث:

الأوَّل: المقاصد العقائديَّة في حِكَم الإمام الكاظم عليه السلام.

الثاني: مقاصده الفرعيَّة والفقهيَّة.

الثالث: المقاصد الأخلاقيَّة وضرورتها السلوكيَّة.

الأوَّل: المقاصد العقائديَّة في حِكَم الإمام الكاظم عليه السلام

يتميّز أئمَّة أهل البيت عليهم السلام بأنَّهم أرباب المذهب الإسلاميّ الشيعيّ كلاميًّا وفقهيًّا، فالمصدر في تعليم وتثقيف وتوجيه الفرد المسلم واحد، والمضمون أيضاً واحد لا يتعدّد ولا يتناقض

مع بعضه البعض، ولا ينتهج منهج التعارض أحياناً إلّا لأسباب علميَّة تولّى علم الأصول شرحها، كالعمل بمبدأ التقيّة وغير ذلك.

فلذلك سنجد أنَّ المقصد الكلاميّ هو نفسه، وليس فيه تعارض بين الحكمة الروائيَّة والآية القرآنيَّة، وذلك لأنَّ الهمَّ الأكبر عندهم ﷺ هو تأمين سلامة الإيمان عند المكلَّف، خصوصاً على المستوى العقائديّ البنيويّ. ومن جملة مقاصد الإمام ﷺ العقائديَّة:

١-تعزيز الارتباط الوثيق بالله عزَّ وجلَّ من خلال تبيان دور العقل في تعقُّل مراتب التوحيد والتسليم لله عزَّ وجلَّ بطريقة تتناسب مع الواقع الغيبيّ الذي يريده الله تعالى من عباده.

وممّا قاله ﷺ في وصاياه لهشام ابن الحكم: "**يا هشام بن الحكم إنَّ الله عزَّ وجلَّ أكمل الحجج بالعقول وأفضى إليهم بالبيان ودلّهم على ربوبيّته بالأدلّاء** فقال تعالى: ﴿إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ لَّا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنزَلَ اللهُ مِنَ السَّمَاءِ مِن مَّاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [البقرة ١٦٣-١٦٤]، ثُمَّ قال له: "**يا هشام قد جعل الله ذلك دليلًا** " على معرفته بأنَّ لهم مدبراً "[٣٥]، فقال: ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومُ مُسَخَّرَاتٌ بِأَمْرِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾[النحل ١٢]، وقد ساق عند كلِّ بيان ومقصد ما يؤيِّد كلامه من القرآن الكريم. ومن الشواهد المؤيِّدة لذلك ما قاله ﷺ: " **أوّل حقّ العقول على صاحبها إخلاص للمعبود**"[٣٦].

إذن، إنَّ أعظم مقصد عند الإمام ﷺ عدم تضييع الحقِّ الإلهيّ، وذلك بأن تكون العقول طوّاعة لطاعة الله تعالى وتحذير النفس من الارتطام بالشرك وعبادة الهوى. والجدير ذكره أنَّه رُبَّما في كلِّ قول له ما يطابقه من آيات الكتاب، وهذا هو التطابق بعينه.

١-الحذر من التقليد الأعمى للكثرة المتكاثرة، لأنَّ المقياس في الحقِّ ليس الناس وإنَّما معرفة الحقِّ، على قاعدة: اعرف الحقَّ تعرف أهله. وممّا قاله لهشام: "ثُمَّ ذمّ الله الكثرة فقال تعالى:

٣٥ الحكيم، أعلام الهداية .٢٠٦_١٨٧ / ٩،
٣٦ الريشهري، ميزان الحكمة .١٨٠٥/ ٣،

﴿إِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِي الْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ اللهِ﴾ [الأنعام ١١٦]. وقال تعالى: ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الأنعام ٣٧]، وقال تعالى:﴿أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ﴾[النمل ٧٣]. لقد سلّط الإمام ﷺ الضوء على جانب خطر، وهو التحذير من الإمَّعيَّة بأن يكون المسلم مسلوب الرأي وكأنَّه أعمى لا يرى، وهذا النوع من الناس ضررهم أكبر من نفعهم.

٢-معرفة الله تعالى حقَّ المعرفة، وعدم تجاوز ما حدّده أولياء الله، "**إنَّ الله تعالى لا يشبهه شيء، أيُّ فحش أو خَنَى أعظم مِنْ قول مَنْ يصف خالق الأشياء بجسم أو صورة أو بخلقةٍ أو بتحديد وأعضاء، تعالى الله عن ذلك علوًّا كبيراً**"[٣٧]. وهذا الحديث مطابق لقوله تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾[الشورى ١١]. من هنا، فإنَّ الإمام ﷺ يريد أن يعرّف الناس على خالقهم بعيداً عن أوهام المتوهّمين، فهو كما قال ﷺ: "**لا تُقّدره العقول، ولا تقع عليه الأوهام، ولا تحيط به الأقطار، ولا يحويه مكان، ولا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار وهو اللطيف الخبير، وليس كمثله شيء، وهو السميع البصير**"[٣٨].

٣-حدّد الإطار العامّ للولاية الإلهيَّة، وأنَّ طاعة النبيّ هي طاعة الله، وطاعة الإمام هي طاعة الرسول والله تعالى. وقد ذكر حديثاً عن رسول الله ﷺ أنَّه قال: "**وأوصيت بأمري، وأمري طاعة الله، ومن عصاني فقد عصى الله، ومن عصى وصييّ فقد عصاني، ومن أطاع وصييّ فقد أطاعني**"[٣٩].

٤-ربط الناس بإمام زمانهم وعدم الجهل به، وكان يشدّد على هذه المسألة كثيراً لأنَّها كانت موضع تشتّت عند عامَّة المجتمع. فما كان يقوله ويوحي به:

أ-"**إنَّ الحجَّة لا تقوم لله على خلقه إلَّا بإمام حيّ يعرف**"[٤٠].

أ-وقال ﷺ: "**إنَّ الأرض لا تخلو من حجَّة، وأنا والله لكلّ الحجَّة**"[٤١].

إنَّ الإمام يقصد إراءة الناس الحقيقة التي ضاعت عند كثيرين، وأنَّ الوراثة الشرعيَّة لرسول الله مرتبطة بالإمام المنصوب والمعيّن من السماء. ولذا كان ﷺ يستدلُّ على ذلك من القرآن. ففي قوله تعالى: "**وأنَّ المساجد لله فلا تدعو مع الله أحداً**." قال ﷺ: "**هم الأوصياء**"[٤٢].

٣٧ الحكيم، أعلام الهداية .٢٠٦_١٨٧ / ٩،
٣٨ المجلسي، بحار الأنوار .٢٩٦/ ٤،
٣٩ الحكيم، أعلام الهداية .٢٠٦_١٨٧ / ٩،
٤٠ الكليني، الكافي .١٧٧ / ١،
٤١ الحكيم، أعلام الهداية . ٢٠٦_١٨٧ / ٩،
٤٢ الحكيم، ٩/ ١٨٧_٢٠٦.

الثاني : مقاصده الفرعيَّة والفقهيَّة

لقد اهتمَّ الإمام ﷺ اهتماماً بالغاً بتعليم الأحكام لأصحابه وكلّ مَن قصد التعلّم منه، إذ إنَّ الفقه عنده رأس المعرفة وعمدتها، وكان يُشدِّد على عدم الابتداع في الدين.

ومن الأحاديث التي رُوِيَتْ عنه ﷺ في هذا الإطار، قال ﷺ: **"يا يونس لا تكوننَّ مبتدعاً، من نظر برأيه هلك، ومن ترك أهل بيت نبيّه ضلّ، ومن ترك كتاب الله وقول نبيّه كفر"**[٤٣]. ويطابقه من الكتاب ما قاله تعالى:﴿يُحَرِّفون الكلِمَ عن مواضعه﴾(النساء: ٤٦)

كان ينبّه ويحذِّر ﷺ من العمل بالقياس. قال ﷺ: **" لا إنَّما هلك من كان قبلكم بالقياس، فقلت له: (السائل) لِمَ لا يقبل ذلك؟ فقال ﷺ: لأنَّه ليس من شيء إلّا وجاء في الكتاب والسُّنّة"**[٤٤].

ولأهميَّة ما كان ينبّه عليه فإنَّه ﷺ ترك الكثير من الروايات ذات المواضيع الفقهيَّة في أبواب مختلفة من كتاب الطهارة والصلاة والصيام والحج والنكاح والطلاق إلى أبواب الوصايا والحدود والديات وغيرها.

ومن جملة المسائل التي تُظهر عظمة حكمته الفقهيَّة ومعرفته الدينيَّة أنَّه كان يوماً عند المهديّ العبَّاسيّ أبو يوسف المعروف بفقهه عند المذاهب الإسلاميَّة، **فسأله: تأذن لي أن أسأل موسى ابن جعفر ﷺ عن مسائل ليس عنده شيء؟ فقال له: نعم ، فقال لموسى ابن جعفر ﷺ أسألك؟ قال: نعم. قال: ما تقول في التظليل للمحرم؟ قال: لا يصلح، قال: فيضرب الخباء في الأرض ويدخل البيت؟ قال: نعم، قال: فما الفرق بين هذين؟ قال أبو الحسن ﷺ: ما تقول في الطامث؟ أتقضي الصلاة؟ قال: لا، قال: فتقضي الصوم؟ قال: نعم، قال: ولِمَ؟ قال هكذا جاء، فقال أبو الحسن ﷺ: وهكذا جاء هذا، فقال المهديّ لأبي يوسف: ما أراك صنعت شيئًا، قال: رماني بحجر دامغ"**[٤٥].

ولشدّة احترام رأي الإمام ﷺ الفقهيّ فقد كان أحمد بن حنبل يروي عن الإمام الكاظم ﷺ عن أبيه حتَّى يسنده إلى النبيّ ثُمَّ يقول: **"وهذا إسناد لو قُرئ على مجنون لأفاق"**[٤٦].

---

٤٣ العاملي، وسائل الشيعة (آل البيت) .٥٦ / ١،
٤٤ الكليني، الكافي .٣٨٩ / ١،
٤٥ العاملي، وسائل الشيعة (آل البيت) .٥٢٢ / ١٢،
٤٦ المازندراني، ابن شهر آشوب. مناقب آل أبي طالب، ط١ (قم: دار الأضواء، ١٣٧٦)، ٤/ ٣٤١.

إنَّ وقع علم الإمام وحكمته وفقهه وتأثيره على قلوب كثير من المسلمين وعلمائهم كان كبيراً إلى حدّ عدم القدرة على التغاضي عن الاستفادة من منهجه الاستنباطيّ، وهذا أمر معروف بين العديد من علماء الإسلام تجاه أئمة أهل بيت رسول الله ﷺ كافَّة. فكانوا إذا أعيتهم المسائل يعودون إلى الإمام موسى الكاظم عليه السلام وبقية الأئمّة عليهم السلام، كلٌّ حسب زمانه ومكانه.

إنَّ تجلِّيات حكمة الإمام موسى بن جعفر ظهرت بشكل واضح في كلِّ مناسبة لإصلاح ما اعوجَّ من أمر المسلمين، وهم كانوا على علم بهذه الحقيقة، إلَّا أنَّ السياسة المجحفة هي التي حالت دون الاقتداء به وبغيره من أئمَّة الهدى عليهم السلام.

الثالث: المقاصد الأخلاقيَّة وضروراتها السلوكيَّة

من المفارقات المهمَّة بين المناهج التعليميَّة الدنيويَّة عند أغلب المدارس الوضعيَّة وبين المناهج الربَّانيَّة المشبّعة بتعاليم الوحي أنَّها لا تفصل تعليم الأحكام الشرعيَّة عن الأطر الأخلاقيَّة، بل يمكن الجزم بأنَّ وراء كلِّ حكم شرعيّ ثَـمَّ حكم أخلاقيّ، ففي المدرسة الإسلاميَّة لا يوجد فصل بين التزكية والتعليم، وإنَّما هما أمران مترابطان، وكلَّما ازداد العالِم علماً ازداد حلماً وهدوءًا ووقارًا، وتخلّق بأخلاق الله على درجة الاعتياد على الرقابة الشديدة للنفس وعدم إهمالها خوفاً من استطالة الشيطان عليها والتحكُّم بها، لأنَّ كلَّ علم لا يتحكَّم به مبدأ أخلاقيّ يصبح مدعاة للغرور والتكبّر.

من هنا، فإنَّ الإمام الكاظم عليه السلام كان حريصاً كلّ الحرص على توجيه المسلمين إلى المقاصد الأخلاقيَّة الصحيحة والسليمة. ومن أعظم حِكَمِهِ الأخلاقيَّة والتربويَّة التي تركها لنا ما رُوي عنه في قضية أبي نصر بشر بن الحارث بن عبد الرحمن المروزيّ، الذي كان من أهل المعازف والملاهي، وقد تاب بسبب كلمة واحدة على يد الإمام الكاظم عليه السلام.

"وقد ذكر أرباب السيّر أنَّ سبب توبته، أنَّ الإمام عليه السلام كان مارًّا بجانب داره وسمع أصوات الغناء تعلو داره، وصادف أن خرجت جارية وبيدها قمامة تريد رميها في الطريق، فالتفت إليها الإمام وسألها: "يا جارية! صاحب هذه الدار حرٌّ أم عبد؟ **فقالت:** حرّ ، **فقال** عليه السلام **لها:** صدقت لو كان عبداً لخاف من مولاه!". **فلمَّا دخلت الجارية الدار، وقد استبطأها**

بشر، فذكرت له ما قاله الإمام لها، حينها خرج مسرعاً يبحث عن الإمام إلى أن وصل إليه وتاب على يديه واعتذر منه وبكى"[٤٧].

إنَّها كلمة واحدة في جملة قصيرة فعلت فعلها. وهذا أكبر شاهد على حكمة الإمام وأثرها على النفوس، وما ذلك التأثير إلّا لكون كلامه صادراً من أنفاس معصومة عن الخطأ، بل هي مؤثِّرة في كلِّ ذي لبٍّ قد يصادفها في أيِّ زمن من الأزمنة.

وكان عليه السلام يوصي شيعته والمسلمين بكلام موجز وبِحِكَم قصيرة بليغة في أثرها، وممّا قاله عليه السلام: **"رحم الله من استحيا من الله حقَّ الحياء: فحفظ الرأس وما حوى، والبطن وما وعى، وذكر الموت والبلى، وعلم أنَّ الجنّة محفوفة بالمكاره، والنار محفوفة بالشهوات"**[٤٨].

وقال عليه السلام: **" إنَّ الله حرَّم الجنّة على كلِّ فحّاش بذيء، قليل الحياء، لا يبالي ما قال ولا ما قيل له"**[٤٩]. وقد وافق كلامه كتاب الله كما في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللهِ فَيَسُبُّوا اللهَ عَدْوًا بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾[الأنعام ١٠٨].

المحور الرابع: التطابق الدلاليّ بين الفصاحة القرآنيَّة، وحِكم الإمام موسى الكاظم عليه السلام.

يمتاز القرآن الكريم ككتاب إلهيّ مقدَّس وخاتم الرسالات السماويّة بكلامه الإعجازيّ، وقد ظهر ذلك في بلاغته الباهرة وفي فصاحة تركيبه اللُّغويّ وفخامة مفرداته ببيان منتظم ودلالة ظاهرة وباطنة، وبعرض دقيق للمعاني والتعابير بشكل لم تعهده العربُ في أدبها وفصاحة أشعارها ومعلّقاتها من ذي قبل.

ولأنَّ العرب يهيمون في إنشاء الكلام ويعتبرونه علامةً على حضارتهم ورقيّهم! بل كان الكلام الفصيح يُعبّر عن قِيَمهم – فإنَّهم لَمَّا سَمعُوا آيات الكتاب بانت عليهم الحيرة الشديدة!

وأمام هذا الإعجاز البالغ الذي لم يستطيعوا أن يخُفوا مدى تأثّرهم به وعدم قدرتهم على إنكاره، فإنَّ آيات الكتاب أشغلت عقولهم وأخرجتهم من ظلماتهم.

ومن هذا المنطلق، كان الاهتمام بالكتاب لا لكونه كتاباً تشريعيًّا فحسب، بل لأنَّ كافَّة الأجيال القريبة إلى عصر التشريع والبعيدة عنه كانت تعيش في ظلّ مؤثّرات صوتيَّة وبيانيَّة

٤٧ البغدادي، أحمد بن علي بن ثابت. تاريخ بغداد، ط١ (دار الغرب الإسلامي، ٢٠٠١)، ٧/ ٧٩.
٤٨ المجلسي، بحار الأنوار .١٤٢ / ١،
٤٩ البرجردي، جامع أحاديث الشيعة، ط١ (لبنان: المطبعة العلمية، ١٤٠٧)، ١٣/ ٤٣٤.

عجيبة عند تلاوتها للكتاب وكانت تدرك معنى الإعجاز البيانيّ للقرآن وتزداد تعلّقاً به.

ولهذا، اهتمَّ أهلُ اللغة مِنَ العلماء والباحثين بعلوم البلاغة واشتغلوا في كشف أسرار تلك الآيات سواء من حيث الحقيقة والمجاز، أو الاستعارة أو التشبيه أو الكناية وغير ذلك.

ولم يكتفوا بذلك، بل سعوا أيضاً لاستكشاف الجمال اللفظيّ للكتاب العزيز وتراكيبه البديعة التي تعجز العرب عن الإتيان بمثلها. قال تعالى: ﴿قُل لَّئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَن يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا﴾[الإسراء ٨٨-٨٩].

وعليه، فأنّى لهم أن يأتوا بمثل قوله تعالى: ﴿اللهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِيَاؤُهُمُ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾[البقرة ٢٥٧]،

حيث استعمل القرآن أسلوب الاستعارة، فللتدليل على الكفر استعمل كلمة "**الظلمات**" وللدلالة على الإيمان استعار كلمة "**النور**"!

وأنَّى لهم أن يأتوا بجملة فيها كناية كما ذكر القرآن! كقوله تعالى: ﴿هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ﴾[البقرة ١٨٧]. فاللباس هنا كناية عن تلك العلاقة الزوجيَّة بين الرجل والمرأة!

إنَّ عظمة البلاغة القرآنيَّة وفصاحته تدلُّ على عظمة الصانع العليم الخبير والمتقن لصنعه وتقديره للأمور.

على ضوء حقيقة هذا الإعجاز البلاغيّ فإنَّ الإمام المعصوم تكمن فيه خصائص بلاغة القرآن، وتتفاعل في تركيب خطابه فصاحةُ الألفاظ وجزالة المعاني، بحيث يظهر مدى الأصالة في الانتماء لمدرسة الوحي والعلم اللَّدُنِّيِّ الإلهيّ إلى درجة أنَّ كلَّ عالم متخصِّص يقرأ في خطب وكلمات الأئمَّة ﷺ، ويحفظ منهجهم البلاغيّ ثُمّ يصادف أحياناً ما يُنسب إليهم من كلمات وهي ليست لهم، يستطيع أن يميّزها إن كانت قد صدرت عنهم أم أنَّها لم تصدر، وذلك بسبب معرفة قوَّة بيانها وبلاغتها المعروفة عندهم ﷺ أو بسبب ضعفها وركاكتها وعدم مناسبتها لبلاغتهم.

فالأئمَّة المعصومون يمتازون بلغة عربيَّة أصيلة تبرهن على شدّة تقارب اللغة القرآنيَّة مع لغتهم . وهذا ما أكَّد عليه النبيّ مُحَمَّد صلى الله عليه وآله في قوله: **"أنا أفصح من نطق بالضاد بيد أنّي من قريش"**[٥٠]. ولا شكَّ أنَّ الأئمَّة عليهم السلام هم خزّان علم الرسول وورثة بلاغته وفصاحته، فلو قارنّا بين ما جُمع لرسول الله من خطب وكلمات كما في كتاب مدينة البلاغة *، وبين ما جمعه الشريف الرضيّ لخطب الإمام عليّ عليه السلام في نهج البلاغة، لَلَحظنا أنَّ العقل الإبداعيَّ في كِلاَ المنهجين واحد، ويظهر منه بوضوح الامتداد الطبيعيّ للوراثة العلميَّة للنبيّ صلى الله عليه وآله. فالورثة الشرعيّون لا يحملون المعاني وحدها دون قوالبها من الألفاظ البديعة، وإنَّما خطاباتهم تُعَدُّ إعجازاً في البديع والإيجاز البليغ.

وحسبك ما قاله الإمام عليّ عليه السلام في مثل هذه العبارة: **" إلهي كفى بي عزّاً أن أكون لك عبداً، وكفى بي فخراً أن تكون لي ربّاً إلهي أنت لي كما أُحبّ فوفّقني لما تحبّ"**[٥١]. فقد جمعت هذه الحكمة فلسفة التوحيد بمعانيها العظيمة.

إنَّ كلامهم عليهم السلام دون كلام الخالق وفوق كلام المخلوق، يستسقي روعته وجماله من ربيع القرآن، ويتلوّن ببديع المعاني والبيان، فإنْ تكلَّم أفحم وأسكت، وإن وعظ السامع سلب لبّه وغيّر قناعاته، وإن علّم زرع في خباياه نبتةً تظهر ثمارها على فلتات الألسن. وفوق هذا كلّه، فإنَّ قول المعصوم عليه السلام هو من دوحة الكتاب، ومقاصده هي عين مقاصد القرآن، فلا يفوته في كلامه شيء من مداليل الآيات في ظاهرها وباطنها، وفي تفسيرها وتأويلها، وفي ناسخها ومنسوخها، وفي عامّها وخاصّها، وفي مطلقها ومقيّدها، وفي مجملها ومبيّنها، وفي منطوقها ومفهومها وغير ذلك.

إنَّ التعمُّق في تراث الإمام المعصوم يُبرز أمراً عجيباً وهو أنَّ اللغة مِطواعة بين يديه، وهي مسخَّرة في التدليل على الله، سواء في الأصول أم في الفروع، على حدٍّ سواء، بل في سائر الأحوال.

ولهذا، فإنَّ التطابق الدلاليّ بين كلام المعصومين وبين المعاني القرآنيَّة والقدرة على استخراج الأحكام من الآيات جعل منهم أئمَّة للمسلمين ومعين علومهم وموئل رفدهم ونهلهم دون أن ينازعهم على ذلك إلّا مكابر أو معاند.

---

٥٠ المجلسي، بحار الأنوار . ١٨٥ / ١٧،
٥١ المجلسي، ج٩١ / ٩٤.
* وهو كتاب مؤلف من جزأين، جمعه وصنفه الشيخ موسى.

ويظهر هذا الأمر بوضوح في سائر أحاديثهم وحِكمهم وجواهر ألفاظهم التي تؤكِّد على أنَّها الممثل الشرعيّ للسنّة النبويّة الشريفة وهي مؤيّدة بشكل دائم بالشواهد القرآنيَّة الملائمة لها. ومن الأمثلة على ذلك ما ورد عن الإمام الكاظم ﷺ:

١- عن سليمان الفرّاء، عن أبي الحسن ﷺ، في قول الله تعالى:﴿وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ﴾ (البقرة: ٤٥)، قال: الصبر: الصوم، إذا نزلت بالرجل الشدَّة أو النازلة فليصم، فإنَّ الله يقول: ﴿وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ﴾ الصبر: الصوم"[٥٢].

٢-وعن مُحَمَّد بن الفضيل، عن أبي الحسن ﷺ في قوله تعالى: ﴿هو الذي أنشأكم من نفس واحدة فمستقر ومستودع﴾(الأنعام: ٣٨)، **قال ﷺ: ما كان من الإيمان المستقرّ فمستقرّ إلى يوم القيامة، وما كان مستودَعاً سلبه الله قبل الممات"**.[٥٣]

٣-وعن مُحَمَّد بن الفضيل أيضاً، عن أبي الحسن موسى بن جعفر ﷺ في قوله تعالى: ﴿ الَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ﴾(الماعون : ٥). قال ﷺ: **هو التضييع**.[٥٤]

٤-عن عليّ بن أسباط، عن موسى بن بكير، قال سألت أبا الحسن الكاظم ﷺ عن الكفر والشرك أيُّهما أقدم؟ قال: فقال ﷺ لي: ما عهدي بك تُخاصم الناس، قلت: أمرني هشام بن سالم أن أسألك عن ذلك فقال لي: الكفر أقدم، وهو الجحود، قال الله تعالى: **﴿إِلَّا ابليس أبى واستكبر وكان من الكافرين﴾**[٥٥].

٥-ورد أنَّ المهديّ العبَّاسيّ أمر بتوسعة المسجد الحرام والجامع النبويّ سنة (١٦١) هـ فامتنع أرباب الدور المجاورين للجامعَين من بيعها على الحكومة، وقال فقهاء عصره بعدم جواز إجبارهم على ذلك، فأشار عليّ بن يقطين إليه بأن يسال الإمام الكاظم ﷺ، فجاء الجواب "إن كانت الكعبة هي النازلة بالناس فالناس أولى ببنائها، وإن كان الناس هم النازلون بفناء الكعبة، فالكعبة أولى بفنائها" [٥٦].

---

٥٢ الكليني، الكافي .٦١٥ / ٢،
٥٣ العياشي، محمد بن مسعود. تفسير العياشي، ط١ (بيروت: مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، ١٩٣٢)، ١/ ٣٧١.
٥٤ الحويزي، عبدعلي. تفسير نور الثقلين، ط٤ (المطبعة العلمية، ١٤١٢)، ٥/ ٦٧٧.
٥٥ الكليني، الكافي، ج٢/ ٣٨٥.
٥٦ العاملي، وسائل الشيعة (آل البيت)، ج١٣/ ٢١٨.

إنَّ قدرات الإمام الكاظم عليه السلام الباهرة – أو غيره من الأئمَّة عليهم السلام – في تبيان المعارف الإلهيَّة يعجز عنه سائر المسلمين، وذلك أنَّ بيان المعنى وإظهار مقاصده الحكمة منه، أو تعليله ليست مسألة ذوقيَّة تعتمد على الرأي الشخصيّ أو على القياس والاستحسانات كما ذهب إلى ذلك معظم المذاهب الإسلاميَّة في قواعدهم الأصوليَّة، وإنَّما هي مستندة إلى علم حضوريّ ربَّانيّ اختصَّهم الله تعالى به، وجعله كرامة لهم لقاء تفانيهم في ذات الله وإخلاصهم له إخلاصاً قلَّ نظيره. وهم سادة الوجود البشريّ، وهم المثال الحقيقيّ لقوله تعالى:﴿وَاتَّقُوا اللهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللهُ وَاللهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [البقرة ٢٨٢].

فلو لم يكن عندهم هذه العلوم والمعارف الإلهيَّة لما استطاع المسلمون أن يؤسِّسوا لفكر فقهيّ وعقائديّ موسوعيّ، إذ كانوا الملاذ الوحيد الناس كافَّة من جميع أقطار المعمورة.

وممّا يدلُّ على ذلك أنَّه لما سُمّ المتوكِّل نذر إن عوفي أن يتصدق بمالٍ كثير، فلمَّا عوفي سأل الفقهاء عن حدِّ المال الكثير فاختلفوا عليه فقال بعضهم: مائة ألف، وقال بعضهم: عشرة آلاف، فقالوا فيه أقاويل مختلفة، فاشتبه عليه الأمر فقال رجل من ندمائه يقال له: صفعان ألا تبعث إلى هذا الأسود فتسأل عنه، فقال له المتوكِّل: من تعني ويحك؟ فقال له: ابن الرضا، فقال له: وهو يحسن من هذا شيئاً؟ فقال: إن أخرجك من هذا فلي عليك كذا وكذا، وإلَّا فاضربني مائة مقرعة، فقال المتوكِّل: قد رضيت، يا جعفر بن محمود! صر إليه وسله عن حدِّ المال الكثير فصار جعفر بن محمود إلى أبي الحسن علي بن مُحَمَّد عليه السلام فسأله عن حدِّ المال الكثير فقال: الكثير ثمانون، فقال له جعفر: يا سيدي: إنَّه يسألني عن العلَّة فيه، فقال له أبو الحسن عليه السلام: إنَّ الله عزَّ وجلَّ يقول: ﴿لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ﴾ [التوبة ٢٥]، فعددنا تلك المواطن فكانت ثمانين[٥٧].

إن دلّت هذه الرواية على شيء فإنَّها تدلُّ على فهم مداليل الكتاب ووضع منهج استنباطي لم يُروَ عن أحد من علماء المسلمين أنَّهم قدروا على فعل مثله.

ومن الشواهد الأخرى أيضاً التي تؤكِّد على اختصاص أئمَّة أهل بيت الرسول صلى الله عليه وآله بفهم مداليل الكتاب وتفسيره دون غيرهم على الإطلاق ما ورد في آية حلية الطعام من عند أهل

٥٧ المجلسي، بحار الأنوار، ج٥/ ١٦٣.

الكتاب كما في قوله تعالى:﴿الْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمُ الطَّيِّبَاتُ وَطَعَامُ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حِلٌّ لَّكُمْ وَطَعَامُكُمْ﴾[المائدة ٥].

فمعظم مُفسّري علماء السنَّة ذهبوا إلى القول بأن طعام أهل الكتاب يشمل كلَّ أنواع الطعام، سواء أكان من لحوم الحيوانات المذبوحة بأيدي أهل الكتاب أنفسهم أو غير ذلك من الطعام.

لكن أليس هذا الفهم يعارض شروط الذبيحة وأنَّه يشترط في الذابح أن يكون مسلماً، وأن يُذكر اسم الله عليها؟[٥٨].

لذا، كان الحلُّ لهذه المسألة عند أئمتنا ﷺ، ففي تفسير عليّ بن إبراهيم عن الإمام الصادق ﷺ أنَّه قال: **"عُنِيَ بطعامهم ها هنا الحبوب والفاكهة، غير الذبائح التي يذبحون، فإنهم لا يذكرون اسم الله عليها"** [٥٩].

إنَّ ما قدّمه الأئمَّة ﷺ وما بذلوه من عطاءات علميَّة فريدة وخصوصاً ما صدر عن الإمام الكاظم ﷺ وما وصل إلينا – بالحدِّ الأدنى – له دلالة عظيمة على مطابقة المعاني القرآنيَّة للمعاني الروائيَّة الصحيحة، فليس كلّ من قرأ القرآن استطاع أن يُرجع الفروع إلى أصولها حتَّى في أكثر الأمور بداهة.

فحينما كان أبو حنيفة يأكل الطعام على مأدبة الإمام الصادق ﷺ، ولَّما انتهيا قال الإمام ﷺ: الحمد لله ربِّ العالمين، اللهم هذا منك ومن رسولك ﷺ! فقال أبو حنيفة: يا أبا عبدالله، أجعلت مع الله شريكاً؟ فقال له: ويلك، فإنَّ الله تعالى يقول في كتابه: ﴿وَمَا نَقَمُوا إِلَّا أَنْ أَغْنَاهُمُ اللهُ وَرَسُولُهُ مِن فَضْلِهِ﴾[التوبة ٧٤]، وقال في موضوع آخر:﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُوا مَا آتَاهُمُ اللهُ وَرَسُولُهُ وَقَالُوا حَسْبُنَا اللهُ سَيُؤْتِينَا اللهُ مِن فَضْلِهِ وَرَسُولُهُ إِنَّا إِلَى اللهِ رَاغِبُونَ﴾ [التوبة٥٩]، **فقال أبو حنيفة: والله، لكأنِّي ما قرأتهما قط من كتاب الله ولا سمعتهما إلَّا في هذا الوقت! فقال أبو عبدالله ﷺ: بلى، قد قرأتهما وسمعتهما ولكن الله تعالى أنزل فيك وفي أشباهك.**[٦٠]، قال تعالى:﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا﴾[محمد ٢٤]، وقال تعالى:﴿كَلَّا بَلْ ۜ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾[المطففين ١٤].

---

٥٨ www.alquran.alhodocenter.net، 2023.

٥٩ الشيرازي، ناصر مكارم. تفسير الأمثل في كتاب الله المنزل، ط١ (بيروت لبنان: مؤسسة الأعلمي للمطبوعات،د.ت.) ٣/ ٦٠٩.

٦٠ المجلسي، بحار الأنوار، ج٤٧/ ٢٤٠.

من هذه المدرسة الإلهيَّة استقى الإمام الكاظم ﷺ مناهل علمه، وأفاض على المسلمين من عذب مائه، حتَّى جسَّد بالقول والفعل حقيقة القرآن الناطق.

المحور الخامس: أثر حكمة الإمام ﷺ على التربية العقليَّة

إن كان الله تعالى قد ميّز بني آدم بجوهرة العقل وجعلهم أشرف كائناته الحيّة وسخّر لهم ما فوقهم وما تحت أيديهم وكرمهم وعزَّزهم وأعزَّهم بتوفيقه ولطفه، فإنَّ التمايز الآخر للبشر يتوقَّف على الاهتداء للخرائط العقليَّة التي تُخوّل الإنسان الاستفادة الصحيحة من مواهب الفكر والتعقّل. فليس كلّ من وُصف بالحيوان الناطق يكون عاقلاً ومتسلِّطاً على أهوائه وخيالاته الباطلة، والقرآن الكريم يكشف هذه الحقيقة بقوله تعالى: ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾[العنكبوت ٦٣]. فالعقل نعمة ما أدرك قيمتها وعرف أثرها إلَّا الذين رُزقوا الحكمة، وهذا الأمر يتوقّف على وجود مربٍ ومعلّم حاذق وموجّه معتصم بكتاب الله، يأخذ بالإنسان إلى طريق الصواب والرشاد، فكما أنَّ البدن والنفس يحتاجان إلى تهذيب وتربية ولياقة، كذلك فإنَّ العقل لا يمكن إدراك قيمته إلّا بالتربية. وشتّان بين تربية العقل بالمعلومات وبين تنميته بما يُصلحه وبما يوافق مصالحه في الدنيا والآخرة. فثَمَّة معرفة تبني العقل لكن بطريق خاطئ، حيث يشكِّل ذلك عليه ضرراً في الدنيا قبل الآخرة، كمن يتعلَّم من غيره السحر والقيافة أو التجارة بالمحرمات أو يكتسب أخلاقاً رذيلة تُشجّعه على القتل أو أذيَّة الآخرين أو سرقة أموالهم، أو يتَّبع الاتِّجاه العلمانيّ الذي يفتح عليه الباب للوصول إلى الإلحاد أو الاعتقاد بصحّة الفساد السلوكيّ المكتسب، من قبيل الشذوذ الجنسي وغير ذلك.

الإمام المعصوم الجامع لعلوم الدنيا والآخرة وحده من يُدرك مصالح الإنسان في الدارين. ولذلك، فإنَّ كلماته الحكيمة وأحاديثه الشافية تصبُّ في بناء الشخصيَّة السويّة التي تكون خالية من الأباطيل والأكاذيب والظنون، وإنّما تنمو على منهج الأخذ باليقينيَّات وما نزل منزلتها، فينتج عن ذلك رؤية واضحة وسليمة ترسم لنفسها خريطة عقليَّة تجلب لصاحبها سعادة الدنيا والآخرة.

وهذا ما أشار إليه الإمام موسى بن جعفر في حديثه مع هشام بن الحكم: إنَّ العقل مع العلم فقال تعالى: ﴿ وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ﴾ نُبيّنها للناس ﴿وَمَا يَعْقِلُهَا﴾ أي يفهمها ﴿إِلَّا الْعَالِمُونَ﴾[العنكبوت ٤٣].

فالعلم الدنيويّ لا يكفي وحده لفهم هذه الحقيقة، وإنَّما يحتاج إلى العلم الإلهيّ كي تكتمل الصورة بعينين لا بعين واحدة.

وفي موضع آخر أشار إلى ضرورة الالتفات إلى الفهم قبل العقل، قال عليه السلام: وقال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا لُقْمَانَ الْحِكْمَةَ﴾[لقمان ١٢]. قال عليه السلام: **الفهم والعقل**.[٦١] فمسألة تفهُّم الأمور وعواقبها هي الحكمة التي ينبغي أن يتقنها لكي يعلم أين يضع قدراته العقليَّة، لأنَّه إذا لم يملك الفهم والحكمة فإنَّه قد يُوظِّف عقله في تدمير البشريَّة والدعوة إلى إنكار الذات الإلهيَّة.

ومن القواعد العقليَّة المهمَّة التي ربّى الإمام تلامذته عليها ومنهم هشام بن الحكم مسألة التفكّر إلى جانب مسألة الفهم، وأن التفكّر لا يأتي إلّا من طريق الصمت، قال عليه السلام: **"يا هشام لكلّ شيء دليل، ودليل العاقل التفكّر، ودليل التفكّر الصمت"** [٦٢].

وقد يعتقد بعض الناس بحسب المعايير المعاصرة أنَّ الباحث أو العالم المتخصّص قد يُستدلّ على وفرة عقله وعلمه بكثرة كلامه ومشاركاته الإعلاميَّة وغير ذلك. وهذا غير صحيح، وإنَّما يريد الإمام أن يُرشد إلى الإنسان الإلهيّ الذي يغلب صمته وتفكّره على كثرة كلامه ولا يستعمل ترجمان عقله إلّا وقت تستدعي الحاجة.

هذا، مضافاً إلى أنَّ الإمام عليه السلام وضع ميزاناً لحسن المعرفة من عدمها وهو المعرفة المرتبطة بالله والمأخوذة من مشارب الأنبياء ومنابع الوحي، لأنَّها هي التي تساعد على الوصول إلى الدرجة العالية في الخشية كما قال الله تعالى:﴿ إِنَّمَا يَخْشَى اللهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾[فاطر ٢٨]. قال عليه السلام: **"يا هشام، ما بعث الله أنبياءه ورسله إلى عباده إلا ليعقلوا عن الله، فأحسنهم استجابة أحسنهم معرفة لله، وأعلمهم بأمر الله أحسنهم عقلاً"**.

---

٦١ المجلسي، ١/ ١٣٦.
٦٢ المجلسي، ١/ ١٣٦.

على ضوء بعض هذه الوصايا النورانيَّة نلحظ كيف أنَّ الحكمة الإلهيَّة تفعل فعلها في فتح المسارات الفكريَّة كافَّة، وتوقظ الطاقات العقليَّة، وترفع من شأن المتفكِّر إلى درجة تحميه من الوقوع في المهالك الصغيرة والكبيرة.

١-شروط تحصيل الحكمة ومراتبها:

أ-من أهم الأمور التي يراها الإمام الكاظم ﷺ مساعدة على تثبيت العقل ووراثة الحكمة والفهم مسألة الزهد في الدنيا، بمعنى ألَّا يتعلَّق قلب الإنسان بها، ولا تكون الدافع لأعماله ونشاطاته، بل إذا كانت الآخرة همّ الناس الأكبر فإنَّ الدنيا تطلبهم، لأنَّهم أعرضوا عنها، وهو أمر مجرّب وملموس بالمشاهدة والتجربة والعيان. والسبب في ذلك أنَّ الانغماس في الدنيا ومشتهياتها وملذّاتها غير المعتدلة، والإسراف فيها بشكل مفرط، يُضيع على الإنسان فرصة الاستفادة من المواهب العقليَّة، ويتحوَّل اهتمامه إلى المحسوسات، فيشغل بالدنيا، وتحجب المغريات قلبه عن رؤية نور الحكمة. **ولهذا أوصى ﷺ هشام وقال له: "يا هشام، إنَّ العقلاء زهدوا في الدنيا ورغبوا في الآخرة، لأنَّهم علموا أنَّ الدنيا طالبة ومطلوبة، والآخرة طالبة ومطلوبة، فمن طلب الآخرة طلبته الدنيا حتَّى يستوفي منها رزقه، ومن طلب الدنيا طلبته الآخرة فيأتيه الموت فيفسد عليه دنياه وآخرته"**[٦٣].

بل إنَّ الإمام ﷺ رغَّب طالب العلم بالمستوى الأدنى من الدنيا مع اكتساب الحكمة، فهي التجارة الرابحة، قال ﷺ: **"يا هشام إنَّ العاقل رضي بالدون من الدنيا مع الحكمة، ولم يرضَ (بالعكس) بالدّون من الحكمة مع الدنيا، فلذلك ربحت تجارتهم"**[٦٤].

والتجارة هنا إشارة إلى أدبيَّات القرآن، وهي المتطابقة مع قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى تِجَارَةٍ تُنْجِيكُمْ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ١٠ تُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾[الصف ١٤]

ب- من الشروط المهمَّة لاكتساب الحكمة والعقل ترك فضول الدنيا، وعدم الجري وراء تحصيل الكماليَّات وكلّ ما هو زائد عن حاجة الإنسان، لأنَّ الاشتغال بتحصيل الفضول

٦٣ المجلسي، ٧٥/ ٣٠٢.

٦٤ المجلسي، محمد باقر. مرآة العقول في شرح أخبار آل الرسول، ط٢ (دار الكتب الإسلاميّة، ١٤٠٤)، ١/ ٥٩.

مضيعة للعمر، وتعطيل لأهداف العقل، قال ﷺ: **"يا هشام إنَّ العقلاء تركوا فضول الدنيا فكيف الذنوب؟! وترك الدنيا من الفضل، وترك الذنوب من الفرض"**.

ج- الخصال الأخلاقيَّة هي الإطار الأمثل للشخص العاقل الحكيم، فالعلم وحده دون التزكيَّة لا نفع منه، بل قد يتحوَّل إلى عدوّ داخل الإنسان ويحرفه عن مساره القويم، فهذا إبليس وهو أعلم العلماء لم يوقعه في المعصية الكبرى إلّا تخلّيه عن التقوى واستعمال الهوى وإعمال المقايسة بينه وبين النبيّ آدم ﷺ، لذلك فَقَد الحكمة، واستكبر على خالقه. ولهذا حذَّرنا الله تعالى من عواقب ترك تزكية النفس وتهذيبها بقوله عزَّ وجلَّ: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا﴾[الشمس ٩-١٠].

من هنا، نبّه الإمام على ذلك وهو يُملي رواشح تربيته العقليَّة على هشام بقوله: **"يا هشام... لا يشبع من العلم دهره، الذلُّ أحبّ إليه مع الله من العزّ مع غيره، والتواضع أحبّ إليه من الشرف، يستكثر قليل المعروف من غيره، ويستقلّ كثير المعروف من نفسه، ويرى الناس كلّهم خيراً منه، وأنَّه شرّهم في نفسه وهو تمام الأمر"**[٦٥]. ما أعظم هذه الكلمات الحكيمة التي تُربّي العقل على الاتِّزان والرصانة والبُعد عن الاعتداد بالنفس والتعالي على الناس، وتُجنّب الإنسان الرؤية السلبيَّة تجاه الآخرين، إنَّه العاقل الذي تجمّل في عقله فرأى الأشياء جميلة، كن جميلاً ترَ الوجود جميلاً.

مضافاً إلى ضرورة الالتزام الأخلاقيَّات العمليَّة كافَّة من العدل في الرضا والغضب، وصلة الأرحام، والعفو عمَّن ظلمه، وإعطاء من حرمه، وتكون طبيعته البذل والسخاء، وليكثر من الحياء، ويكفّ نفسه عن أعراض الناس، ويلزم الحلم، ويبتعد عن الغضب، فإنَّ الله تعالى يكفّ غضبه عنه يوم القيامة.

هذا كلُّه من شذرات عقل الإمام الكاظم ﷺ الذي أبان وأظهر حقيقة حكمته البليغة بروحيّةٍ قرآنيَّة عالية، يحسبها القارئ لها وكأنَّه يعرف علماً ونوراً من آيات الله، وما هي إلّا رواشح الآيات وأدبها وحدودها وأخلاقيَّاتها.

٢-المهمّ في ذلك كلِّه، ألّا يُضيّع الإنسان الحكمة لسوء عمله، فإنّه ﷺ نبّه هشام من ذلك

٦٥ الكليني، الكافي.١٩ / ١،

بما نقله عن النبيّ عيسى ﷺ: **بحقٍّ أقول لكم: "إنَّ الناس في الحكمة رجلان: فرجلٌ أتقنها بقوله وصدّقها بفعله، ورجل أتقنها بقوله وضيّعها بسوء فعله، فشتّان بينهما، فطوبى للعلماء بالفعل، وويل للعلماء بالقول".**[٦٦]

لقد جسّد أئمتنا ﷺ الحكمة بوجوهها كافَّة، سواء من حيث القول أم من حيث الفعل، فتناثرت منهم معادن الحِكَم، وأصبحت منارة للسالكين يُستضاء بها، ونوراً للمسترشدين يهتدى بها.

إنَّ آثار إلقاء الحكمة على أهلها تُنبت فيهم الفهم والفطنة والكياسة، وتبعث حبَّ نفوسهم على العمل الصالح، وتحضّهم على الجدّ والاجتهاد. ومهما تباعدت الأزمنة بين النص الحكيم وبين المستفيد، فإنّ العاقل اللبيب يسعى في طلبها ليل نهار ولو كان على مقربة من قيام الساعة.

خاتمة البحث:

بفعل تغيّر المعايير المعاصرة وتبُّدل المقاييس في طلب الفضائل وانتقالها من الموازين المعنويَّة في معظمها إلى الموازين المادية والحسيّة، فإنَّ الحكمة قد قلّ طلاّبها وانعدم الاحساس بضرورة السعي في طلبها، وأصبح المعيار في طلب العلم هو طلب الشهادة الأكاديمية ليس أكثر من ذلك في كثير من الميادين! كذلك ظُلمت الحكمة، وأُبعدت عن مواضعها، كما أنَّ القرآن وُضع على الرفوف وصار مهجوراً والتعليم اقتصر على الجانب التلقيني دون التربية على امتلاك البصيرة والوعي والفهم والحكمة في إدراك الحقائق الدنيوية والأخروية معاً.

ومهما تعاظمت اختراعات البشر واستُبدل الإنسان بالآلة إلّا أنَّ هذا لا يعني إمكانية الاستغناء عن الطرق الدينية لطلب الفهم والحكمة. وإذا كان حلال مُحَمَّد حلالاً أبداً إلى يوم القيامة، وحرامه حراماً أبداً إلى يوم القيامة كما جاء في بعض الصحاح، فإنَّ الحكمة تبقى في صدور العالمين، ولا يمكن أن تنطفئ وإن كثر الزاهدون بها.

ومن الضروري جداً تعميق البحث حول مقاصد أقوال الإمام ﷺ وحكمه، ومطابقتها مع الدلالة القرآنيَّة في مجالات الحياة كافَّة ، لأنَّ ذلك يسهم في تقريب البعيد، وترغيب الزاهد بعلوم آل مُحَمَّد ﷺ، فإذا اطَّلع على بلاغتهم وبيانهم البديع أدرك أنَّ هذا من ذاك، وأنَّ حكمتهم من حكمة الكتاب، وهذا ما قصده الإمام ﷺ بقوله: **"يا يونس: لا تكونن مبتدعاً،**

٦٦ الحرّاني، تحف العقول .٥٩،

من نظر برأيه هلك، ومن ترك أهل بيت نبيِّه ضلّ، ومن ترك كتاب الله وقول نبيه كفر"[٦٧].

فكلَّما قرّبنا كلام الأئمَّة الطاهرين إلى أسماع الناس بلغة مفهومة وبفهم اجتماعي صحيح، فإنَّهم لن يتركوا هذا التراث الإلهيّ العظيم، وسيعملون على تحصيله والبحث عنه، فعن أبي الصلت الهرويّ قال: **سمعت أبا الحسن علي بن موسى الرضا عليه السلام يقول: رحم الله عبداً أحيا أمرنا. فقلت له: وكيف يُحي أمركم؟ قال: يتعلَّم علومنا ويُعلّمها الناس، فإنَّ الناس لو علموا محاسن كلامنا لاتَّبعونا.**[٦٨]

وهل هناك أشرف وأسنى من حلالهم وحرامهم وحِكَمهم البليغة التي تدخل إلى الأعماق دون استئذان؟!

إنَّ تسليط الضوء على شخصيَّة الإمام الكاظم عليه السلام وبلاغته وعلمه يسهم في فهم واستيعاب مكانة الأئمَّة عليهم السلام العلميَّة ودورهم في البناء المعرفيّ الإسلاميّ، إذ إنَّ الخطاب العلميّ الرصين والحكيم يُعطي انطباعاً سلبياً عن الدين الإسلاميّ. فمكانة أهل البيت عليهم السلام ليست مكانة تشريفيَّة فحسب تعتمد على الانتساب إلى رسول الله صلى الله عليه وآله بل هي أيضاً قيمة علميَّة خارقة، وهي جزء لا يتجزأ من تعاليم الإسلام والقرآن، ولا يستطيع أحد أن يُهملها ويُهمّشها.

والحمد لله ربِّ العالمين

وصلَّى الله على سيِّدنا مُحَمَّد وآله الطاهرين

٦٧ الكليني، الكافي .٥٨_٥٦/ ١،

المصادر :

القرآن الكريم .

البرجردي. جامع أحاديث الشيعة. ط١. لبنان: المطبعة العلمية، ١٤٠٧.

البغدادي، أحمد بن علي بن ثابت. تاريخ بغداد. ط١. دار الغرب الإسلامي، ٢٠٠١.

الحرّاني، ابن شعبة. تحف العقول. ط٢. قم: مؤسسة النشر الإسلامي التابعة لجماعة المدرسين، ١٤٠٤.

الحكيم، منذر. أعلام الهداية. ط١. قم: المجمع العالمي لأهل البيت ﷺ، ١٣٨١.

الحويزي، عبدعلي. تفسير نور الثقلين. ط٤. المطبعة العلمية، ١٤١٢.

الريشهري، محمد. العلم والحكمة في الكتاب والسنة. ط١.، د.ت.

الريشهري، محمد. موسوعة العقائد الإسلامية. ط١.، ١٤٢٥.

الريشهري، مُحَمَّد. ميزان الحكمة. ط١. دار الحديث، ١٤١٦.

الشيرازي، ناصر مكارم. تفسير الأمثل في كتاب الله المنزل. ط١. بيروت لبنان: مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، د.ت.

الصدوق. ثواب الأعمال وعقاب الأعمال. ط١. مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، ١٩٨٩.

الصدوق. عيون أخبار الرضا ﷺ. تصحيح وتعليق وتقديم. حسين الأعلمي، ١٤٠٤.

الصفار، مُحَمَّد بن الحسن. بصائر الدرجات. ط١. بيروت لبنان: شركة الأعلمي للمطبوعات، ١٤٠٤.

الطبري، مُحَمَّد بن جرير. دلائل الإمامة. تحقيق قسم الدراسات الإسلامية – مؤسسة البعثة –. ط١. قم، ١٤١٣.

العاملي، مُحَمَّد بن الحسن الحر. وسائل الشيعة (آل البيت). ط٢. قم: مؤسسة آل البيت ﷺ لإحياء التراث، ١٤١٤.

العياشي، محمد بن مسعود. تفسير العياشي. ط١. بيروت: مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، ١٩٣٢.

الكليني، مُحَمَّد. الكافي. ط٣. طهران: دار الكتب الإسلامية، ١٣٦٥.

المازندراني، ابن شهر آشوب. مناقب آل أبي طالب. ط١. قم: دار الأضواء، ١٣٧٦.

المجلسي، محمد باقر. مرآة العقول في شرح أخبار آل الرسول. ط٢. دار الكتب الإسلاميّة، ١٤٠٤.

المجلسي، مُحَمَّدباقر. بحار الأنوار. ط٢. بيروت: مؤسسة الوفاء، ١٤٠٣.

المظفر، مُحَمَّد رضا. أصول الفقه. ط٤. بيروت: دار التعارف، ١٩٨٣.

المفيد. الاختصاص. ط١. قم، ايران: مؤسسة النشر الإسلامي، د.ت.

المفيد، مُحَمَّد. رسالة في المهر. ط٢. بيروت: دار المفيد للطباعة والنشر والتوزيع، ١٤١٤.

لجنة الحديث في معهد باقر العلوم ﷺ. موسوعة شهادة المعصومين ﷺ. ط١. قم: انتشارات نور السجاد، ١٣٨١.

شبكة الكفيل العالمية، ٢٠٢٣.

https://alkafeel.net/.

www.alquran.alhodocenter.net. 2023